حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة السابعة عشرة / (مارس - أبريل) ٢٠٢٢

89

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary | March - April 2022

عصر الورد

رُواءٌ طـيِّـبُ الذِّكْـرَى ... إلـــى أحْـلامِـنا أسْـرَى

بـ"عَصْـرِ الـوَرْدِ" ذَكَّـرَنَا ... فَـجَـدَّدَ رائـعَ البُشْـرَى

ثلوجُ اليأسِ قَدْ ذَابَـتْ ... أمــامَ كِـفَـاحِـنا تَتْـرَى

٢ السموُّ بالإنسان — **فتح الله كولن**

٢٠ ستار الأُلفة — **صابر عبد الفتاح المشرفي**

٥٠ النرجسية داء العصر الرقمي — **د. خالد صلاح حنفي محمود**

رحلة السموّ

لا شك أن الإنسان أروع الكائنات وأعظمها، فيه اكتنزتْ العوالم وفيه انطوتْ الدُّنا. إنه "الموضوع الرئيس للعلوم المادية واللامادية، وليس لما سوى ذلك وزن ولا قيمة إلا بمقدار علاقته بالإنسان".. بهذه الكلمات يستهل الأستاذ "فتح الله كولن" مقاله "السموُّ بالإنسان" المتصدِّر هذا العدد من حراء، مشيرًا إلى رحلة الإنسان المباركة السامية، ومنوِّهًا بالمهمة الواقعة على عاتق كبار المربِّين، وهي تعريف هذا الإنسان بماهيته، وتنميةِ قدراته العقلية، وتقويةِ إرادته، وتصفيةِ عالَم مشاعره؛ حتى يقوم بالاتصال بما وراء الطبيعة، ويشعر بوجود خالقه ﷻ من خلال مرآة وجوده هو، ومن ثم يتمتع بمشاهدة الجمال الفريد.

وإذا كان الأستاذ كولن أكّد على السموّ بالإنسان والاهتمام بتربيته التي ترتقي به إلى مستوى الإنسانية، فقد تناول "عماد عبد الرازق" جانبًا محوريًّا يدعم هذا السمو وهو "المعرفة" التي يستظل تحتها التعايش والحوار، وذلك من خلال مقاله الموسوم بـ"آفاق المعرفة مظلة التعايش والحوار".

وأما "محمد زغلول عامر" فيحدثنا في مقاله "المدنية الإسلامية في الميزان الاجتماعي" عن أن الحضارة الإسلامية، هي حضارة إنسانية ذات طابع كوني يقوم على استيعاب وتطوير أية فكرة في إطار من التسامح الكامل مع ذلك الذي أسسها، مسلمًا كان أو غير مسلم.

وتستعرض "آسيا رضوان" في مقالها "تكنولوجيا التواصل الحديثة والتغيير المجتمعي"، تقنيات التواصل الحديثة وقوتها التأثيرية التي تعيد هيكلة مجتمعاتنا وبناء تمثلاتنا حول ذواتنا وحول الآخر، وبالتالي تعيد تشكيل منظوماتنا القيمية والأخلاقية وتحكم علاقاتنا الاجتماعية.

أما "صابر عبد الفتاح المشرفي" فيزيح عنا ستارًا سمّاه "ستار الأُلفة" الذي يحجب عنا إبصار الجمال الموجود في كتاب الكون، ويمنعنا من سماع صوت الحق من ألسنة الحوادث والكائنات، قائلاً "إن النظر إلى الآيات الكونية أو القرآنية من خلال ستار الأُلفة، يحجب عنا رؤية مدى الجمال المعجز في كل آية، ويخفي عنا بعضًا من وجوه الإعجاز التي تتجلى في هذه الآيات".

ويطلعنا "محمد السقا عيد" من خلال مقاله "الجينوم البشري والتنبؤ بالأمراض" على المفاتيح التركيبة الجينية التي تعطي الفرصة للتحكم أو للتكهن بما قد يصيب الإنسان في مراحل حياته المختلفة، مشيرًا إلى اكتشاف أسرار الجينوم البشري التي فتحت الأبواب أمام البحث العلمي، وأصبح بالإمكان معرفة استعداد الشخص للإصابة بمرض ما.

ويدعو "ناصر أحمد سنه" من خلال مقاله "الميزان وأثره على حياة الكائنات" إلى النظر في نظام الكون المتوازن المتناسق والتأمل فيه، مشيرًا إلى أن "الإنسان سائح، والكون مكتبة زاخرة مطروحة لنظَره وتأمّله وسياحته. ولقد أُرسل هذا السائح إلى هذا العالم ليقرأ هذه الكتب ويزيد في معرفته ومن ثم ينشئ جنَّات كجنَّات عدن".

هذا وندعو قراءنا الأعزاء إلى الاطلاع على المقالات الأدبية والعلمية والثقافية التي ساهمت في تشكيل الإطار العام لهذا العدد، والله من وراء القصد. ■

المحتويات

السموُّ بالإنسان / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
جذور اللغة العربية في العلوم الطبية / أ.د. نبيل سليم (علوم)	٦
آفاق المعرفة مظلة التعايش والحوار / د. عماد عبد الرازق (قضايا فكرية)	١٠
تكنولوجيا التواصل الحديثة والتغيير المجتمعي / آسية رضوان (علوم)	١٤
كيف يؤثر المثقف في مجتمعه؟ / سعيد سهمي (قضايا فكرية)	١٧
ستار الأُلفة / صابر عبد الفتاح المشرفي (قضايا فكرية)	٢٠
اقتربْ فإنك من علَق / هشام الحداد (قضايا فكرية)	٢٤
الجينوم البشري والتنبؤ بالأمراض / د. محمد السقا عيد (علوم)	٢٨
خصصوا في قلوبكم مقاعد للجميع / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
رأيٌ في شعر المناسبات / د. أحمد تمام سليمان (أدب)	٣٤
العفاريت النانوية وتلوثات البيئة / أ.د. بسمة سيف (علوم)	٣٨
المدنية الإسلامية في الميزان الاجتماعي / محمد زغلول عامر (تاريخ وحضارة)	٤٢
الميزان وأثره على حياة الكائنات / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٤٦
النرجسية داء العصر الرقمي / د. خالد صلاح حنفي محمود (علوم)	٥٠
المسؤولية الواعية في التربية / سليمان أحمد شيخ سليمان (تربية)	٥٤
لمسة الأمل في فكر فتح الله كولن / زهرة شرفي (قضايا فكرية)	٥٨
وسائل التواصل الاجتماعي وآداب استخدامها / أ.د. موفق أواز (تربية)	٦٢

السموُّ بالإنسان

إن ماهيتك أرقى حتى من الملائكة
فالعوالم فيك مكنوزة والدُّنا فيك مَطويَّة
(محمد عاكف أرسوي)

إن الإنسان هو الموضوع الأساس لجميع الأفكار الفلسفية والمذاهب العلمية.. فلا يمكن إنشاء فلسفة ولا مزاولة علم بمعزل عن أخذ الإنسان بعين الاعتبار.. فهو الموضوع الرئيس للعلوم المادية واللامادية، وليس لما سوى ذلك وزن ولا قيمة إلا بمقدار علاقته بالإنسان.

حوله تلتف العلوم بفروعها المختلفة، وللبحث عن جوانبه المتعددة تضع العناوين.. وإليه تسير الكتب سيرًا حثيثًا، وبه تمتلئ وتبث الأنوار.

إن الإنسان بتصميم شكل جسمه، وتحديدِ وظائف أعضائه، كيانٌ بديع يفوق حدود التصور، فإذا قمنا بتشريح جوهره أو عضو من أعضائه فلن نتمالك إلا أن نقف أمامه بالحَيرة والانبهار.

إن الإنسان هو الموضوع الأساس لجميع الأفكار الفلسفية والمذاهب العلمية، فلا يمكن إنشاء فلسفة ولا مزاولة علم بمعزل عن أخذ الإنسان بعين الاعتبار، فهو الموضوع الرئيس للعلوم المادية واللامادية.

أما العمق الذي يتمتع به عالمه الداخلي، وما يمتلكه من موهبة التوسع في الأبعاد فَحدِّثْ عنها ولا حرج! فهناك دماغ معقَّد، وروحٌ يصعب علينا إدراك ماهيته من خلال ما نملكه من المقاييس المادية، وعلاقةٌ متناغمة كاملة بين هذين الكائنين (الدماغ والروح) المحاطَين بالأسرار.. فكل واحد من هذه الأمور ذو معاني عميقة تبلورت من الألوان الموجودة في أعلى طبقات هذا الصرح الرائع.

ولكننا لن نتطرق الآن إلى جانبه الظاهري البديع، ولا إلى باطنه الذي نستشف جانبًا منه من خلال هذا الموشور [الظاهري].. بل سنتحدث عن بضعة من مواهبه وقدراته التي يَرقَى بها نحو المعالي.

إن الإنسان بكل عناصره، كائن يصعب فهمه وإدراك كنهه. ومنذ قدومه إلى الدنيا تبدأ جوانبه الغريبة وحالاته العجيبة لتنكشف واحدة تلو الأخرى.

فبينما يقدم غيره من الكائنات إلى الدنيا من البداية مزودًا بغرائزه المثالية، خبيرًا بقوانين الحياة وكأنه تَلَقَّ تدريبًا في عالم آخر، يأتي الإنسان -على الرغم من كونه أروعَ وأعظمَ الكائنات- إلى هذا العالَم محرومًا من كل هذه الانسياقات والغرائز، ليس لديه دراية بالمهام الضرورية للحياة.. فكل ما عدا نظامه الميكانيكي يتشكل هنا بفضل ما أُودِع فيه من العقل والذهن والإرادة والحرية والحس والاستطلاع الداخلي.. ولا يحظى بالتكامل الخارجي والداخلي، ولا يصل إلى ذاتيته إلا عبر هذا الطريق.

فهذه المواهب الإنسانية -التي تُعتَبَر بمثابة "نية" ورمزٍ لكونه "إنسانَ المستقبل الكبيرَ"- لا يمكن تنميتها وتطويرها إلا من خلال التربية والتعليم، ولا تتسع أبعادها إلا عن طريق المشاهدة والمراقبة الداخلية. أما إذا تركنا لها المجال لتنساق سائبةً، فإن هذه النواة أو مجموعة النَّوى التي من شأنها أن تصبح أكمل شيء وأَمْثَلَه، ستكون معرضة للسقوط في أتعس الأحوال وفي وضع مُزْرٍ يُرثَى له.

وبينما يولد الأسد مزوَّدًا مخالبه التي يحتاج إليها، ويولد الثور بقرونه، والكلب بأنيابه، فإن الإنسان يُرسَل إلى هذا العالم وقد أوسِد إليه أن يتولى أمرَ إعدادِ أدواته التي يدافع بها عن نفسه أو يَهجُمُ بها على أعدائه.

فعليه أن يستخدم الأدوات التي يخترعها ببصيرته وذكائه وإرادته وعقله حتى يَجلبَ ما يحتاج إليه لمواصلة حياته ودَفْع كل ما يضرّ به، وبذلك يؤسس عالَمه الفردي والإنساني، عالَمه الإنساني المليءَ بالسعادة والطمأنينة، ثم يَترك للأجيال اللاحقة الآثارَ التي صنعها،

والقِيَمَ التي أنتجها وأقامها في عالمه القلبي والفكري.

عليه أن يفعل هذا، لأنه لا يعيش -فقط- اللحظةَ التي هو فيها، بل يَنظر إلى الزمان الماضي والمستقبل على أنهما من الأمور الحية وأنهما جزءان من كيانه.

ومن هذا المنطلق، فإننا نلاحظ أن الذين خدموا حياتنا الفكرية والعلمية من سالف الزمان إلى يومنا هذا، على الرغم من أنهم كانوا يعلمون أنهم لن يشاهدوا في حياتهم كثيرًا من ثمرات جهودهم على أرض الواقع، لكنهم لم يتوانَوا عن العمل ولم يسقطوا في شِباك اللامبالاة، بل سعَوْا جاهدين من أجل الإنسانية، وخلَّفُوا مِن ورائِهم مقدارًا عظيمًا من التراث العلمي والثقافي، ولولا ذلك لَمَا كان من الممكن اليوم الحديثُ عن العلم ولا عن الحضارة على وجه الأرض.

وكما هو الحال في التراث العلمي والثقافي والحضاري، فكذلك تنشئة الإنسان الكامل المتحلي بالفضائل هي أيضًا ثمرة المساعي والجهود التي بَذَلها ويبذلها الإنسان.. فلم تَتَحقَّق تنمية مواهبه وتنظيمُ تصرفاتِه وسلوكه وسَوْقِه نحو الخير والفضيلة، إلا بيدِ أبناء جنسه هو.. وعلى مر التاريخ تَوَلَّى جيل سابقٌ تربيةَ جيلٍ لاحقٍ واتخذَها مهمة على عاتقه.. ومن هذا فقد ظلت التربية الصالحة هي أكبر هدية من السابقين إلى اللاحقين.

وكما أن التربية تمنع انهماك الإنسان في نوازعه وميوله الحيوانية التي تؤدي إلى عزوفِه عن غايته وإنسانيته، فكذلك تضع الحدود لحركاته وأنشطته، حتى لا يصبح سائبًا مضمحلاً.. كما أنها تؤدي إلى تنمية القدرات التي وُلِدت مع الإنسان، وتُساعد على بروز الطاقة الكامنة في روحه.

إن الإنسان يحمل في ماهيته بذورًا للخير والجمال، وليس فيه بذور الشر والقبح.. أما أمثال الشهوة ومشاعرِ الغضب والانتقام، فإنما هي بمثابة مشاتلَ للمحاسن غيرِ المباشِرةِ. ولكن ينبغي أن لا ننس أن كل ما نشاهده من الجمال في الأمور الإيجابية أو السلبية، إنما هو من ثمار التربية، كما أن كون الإنسان "إنسانًا" يستند هو أيضا إلى التربية.. تربيةٍ تدفعُ بالعقل والإرادة والمشاهدة الداخلية إلى أن تقوم بكل وظائفها.

وينبغي أن ندرك أن كونَ الإنسان كائنًا عاقلاً يمتلك الإرادة والمشاهدة الداخلية هو السمة التي تميزه عن غيره من الكائنات، وترفعُه إلى ما فوق كينونته الحيوانية، وتجعلُه يتمتع بالاستقلالية تجاه قوانين الطبيعة العاملة وفق قوانين العِلِّيَّة، ثم تربطه بحضرة الموجود "المطلق الحر والفاعل المختار".

إن العقل حسبَ تعريفه الفلسفي: موهبة تَستخدِم مجموعة من القوانين والمبادئ لتَستخرِج الأحوالَ الخاصة من الأمور العامة. والذي يميز ماهية الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى في الأساس، هو هذا العقل الفعَّال الذي هو نعمة خصَّ الله الإنسانَ بها.

نَعم، إن العقل على رأس العوامل التي تجعل الإنسان "إنسانًا"، إلا أنه لم يُمنَح للإنسان بشكله الكامل والناضج، بل أُعطِيَهُ بشكله البسيط والمطوي، فيجب على الإنسان أن يطوِّر ويُنَمِّيَ هذه الموهبة التي تميزه -من حيث الماهية- عن سائر الأحياء. وبالأخص فإن العقل إذا أصبح رابطًا بين العالَم الداخلي والخارجي، واقترن بالوجدان فسيكتسب ماهية مختلفة تمامًا.

و"الوجدان" مصدر يمكن أن يقصد به معنى المصدر المبني للفاعل والمبني للمفعول، وإذا قُصد بكلمة "الوجدان" معنًى يجمع بين المبني للمجهول والمعلوم، فإنها تكون بمستوى "العقل" الذي يحكم على الأمور من الناحية العملية، ويرشدنا في سلوكنا ووجهتنا.

وأقصى غاية وأسمى هدف في تحول العقل إلى "ذهن" وأدائِه لوظيفته، هو البلوغ إلى مستوى "معرفة الله". فالعقل أو الذهن الذي يصل إلى مستوى هذه "المعرفة" يكون واصلاً إلى درجة الكمال، ويكون قد دخل تحت التكاليف الوجدانية.

ومن العناصر التي تجعل الإنسانَ "إنسانًا" كونُه متمتعًا بـ"الحرية".. بمعنى أن يتخذ القرار في حركاتِه وتصرفاتِه بنفسه، وأن يكون صاحبَ عقلٍ فعَّال وذا استقلاليةٍ ذاتية. وبفضل ذلك يرتقي الإنسان فوق كل الطبيعة؛ حيّها وجامدِها، ويكتسبُ مهارة التحكم في تصرفاته ومستعدًا لأن يحاسَب عليها. وليس من الممكن شرح مفهومَي "الأخلاقية" و"اللاأخلاقية" من دون أن نأخذ الحرية وإرادةَ الإنسان بعين الاعتبار، علمًا بأننا لا نَأْبَهُ بما يخالف هذا من الأفكار التافهة التي يطرحها الذين ينكرون إرادة الإنسان وينظرون إليه على أنه ماكينة، ولا بالرؤى السطحية والتافهة لبعض الوضعيين والماديين.

وهذا يعني أنه من الضروري القبولُ بوجود جانب من الحرية وحريةِ الاختيار في الإنسان، أي بأن فيه جانبًا لا تتحكم فيه قوانين الطبيعة، وأن هذه الجهة هي التي تستند إليها الأخلاق. فإن للاختيار دورًا محوريًّا في قضية كون الإنسان مخاطَبًا تجاه العالَم العُلوي، وأدائِه لبعض التكاليف المترتبة على كونه مخاطبًا تجاه ذلك العالَم، وتفريقِه بين الخير والشر والحَسَن والقبيح عن طريق توجيه خارجي أو شهود داخلي.

ثم إن أشكال الوعي بالعالَم الخارجي، وكذا الامتصاصات الداخلية (أي انعكاس المعاني على الوجدان على شكل أطياف نورانية، وتأكيدُها) تَفتح منافذ مطلةً على ما وراء عالَم الإمكان، بحيث إن الإنسان في هذه المرحلة يحس بأنه يرتقي عما يعيش فيه من الأبعاد المكانية نحو العوالم العُلوية. فهذه الظاهرة التي يمكن تسميتها بـ"المعراج"، تتحقق على حسب جولان العقل وقوة الإرادة وسلامة المشاهدة، ويمكن أن تتجلى في كل فرد من الناس، ويستطيعُ كل أحد منهم أن يَحظى منها بنصيبه بقدر ما تَسَعه الجامُ التي بيده وما تحتويه الجام من شراب الكوثر.

وهناك بعد هذه المرحلة تأتي نقطة لا يَصِل إليها إلا أناس يتمتعون بقعل راجح وإرادة رائعة، ومشاهدةٍ داخلية وأذواق بالغة العمق والسعة.. وهذه النقطة هي مشاهدة الجمال الفريد للخالق الذي يجعلنا نَشعُر بوجوده مِن خلال مرآة وجودنا، ونحس بإرادته من خلال إرادتنا، وفي إحساسنا بإشعاره، ويوصلنا إلى هذا المستوى من الذوق والنشوة.

وقد ظل إنسانُنا منذ قرون، غريبًا عن هذه الرحلة المباركة السامية. وتقع مهمة تعريف هذا الإنسان بماهيته هو، وتنميةِ قدراته العقلية، وتقويةِ إرادته وتصفيةِ عالَم مشاعره حتى يقوم بالاتصال بما وراء الطبيعة.. يقع كل ذلك على عاتق كبار المُرَبّين.

وإننا نناشد كل التربويين مرة أخرى، لنقول لهم بكل صراحة: إنكم إذا تباطأتم قليلاً في تربية جيلنا الذي تحوَّل إلى آلة بين دواليب الماكينات وتروسها، ولم تقدموا له تربية ترتقي به إلى مستوى الإنسانية، فإنكم ستكونون أنتم المُدانين أمام التاريخ والمسؤولين عن تحوُّل الجيل إلى "أَكَلَةِ لحوم البشر". ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية، العدد: ٦ (يوليو ١٩٧٩)، تحت عنوان: İnsanı Yükseltmek. الترجمة عن التركية: أجير أشيوك.

أ.د. نبيل سليم*

جذور اللغة العربية في العلوم الطبية

كان الاهتمام الأول للإنسان هو التخلص من الآلام والأمراض التي تهدد راحته، لذا اهتم بالعلاج وبحث في شؤون الشفاء فتولد علم الطب، ولما تقدمت الحضارة اعتنى بالجراحة والتشريح لمعرفة ما خفي عنه من جسم الإنسان. تطور الطب تطورًا كبيرًا مع تقدم الحضارة، وعنيت الحضارة الإسلامية عناية كبيرة بالطب وكانت من أهم جذور الطب الغربي الحديث.

إن اهتمام الأطباء المسلمين بالطب دعاهم إلى التأليف والترجمة من اليونانية رغم انتشار فكرة تحريم التشريح لأنه "تسليخ"، لهذا تصدى ابن رشد لهذه الفكرة فقال: "إن معرفة الأعضاء بالتسليخ تقرب من الله تعالى، واستشهد بالآية الكريمة ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢١)، ومعنى هذا أنه مارس التشريح. ومثله عمل أبو

القاسم الزهراوي؛ فقد وصف الدورة الدموية الصغرى وصفًا لا يمكن فيه الاجتهاد النظري، وهو الوصف الذي خالف فيه ابن سينا وجميع أطباء عصره.

إن التطبيق العملي للطب، دل على دقة الطبيب ورغبته في التأكد من عمله. وكان أبو القاسم الزهراوي في طليعة جرّاحي المسلمين وصاحب مدرسة في الطب؛ لأن معلوماته ووسائله وآلاته شكلت أسس الجراحة الحديثة، وهو أول من فصل الجراحة عن الطب الباطني، وأول من خاط الأعضاء بخيوط مصنوعة من الأمعاء، وأول من بتر بين رباطين، وأول من أوصى بجعل الأطراف السفلى أعلى من الرأس عند إجراء العمليات الجراحية في البطن.

ولم يكن الزهراوي منفردًا في اهتمامه بالجراحة، فقد ذكر المؤرخون فضل تقدم الجراحة إلى مروان بن زهر، لأنه أول من اهتم بدراسة العظام والكسور. وقد ألف ابن القص كتابًا سمّاه "العمدة في الجراحة"، وألف صالح بن نصر الله الحلبي بن سلوم كتاب "الغاية في الجراحة".

وقد استعمل المسلمون آلات جراحية متعددة، فلكل آلة عملٌ يختلف باختلاف الجراحة، وتدل دقة صناعتها على الحذق والدقة والتجارب العملية، ولكثرتها نذكر بعضها كي لا نطيل:

١- النشاب وسنابير الستبل.
٢- الظفرة.
٣- منجل التأكيل.
٤- محك الجرب.
٥- منشار القطع.
٦- مكمدة الحشاو.
٧- نوار النسا.
٨- مفتاح الرحم.

إضافة إلى المباضع والمدورات والقاطع للدم، وغيرها.

وقد قام الأطباء بعدد من عمليات الجراحة الناجحة، وبقيت كتب الطب العربي تُدرَس في الجامعات الغربية، ومن الطريف أن مكتبة كلية الطب في باريس، لم يكن فيها غير كتاب واحد هو "كتاب الحاوي للرازي". فقد

كان أبو القاسم الزهراوي في طليعة جرّاحي المسلمين، وصاحب مدرسة في الطب؛ لأن معلوماته ووسائله وآلاته شكلت أسس الجراحة الحديثة، وهو أول من فصل الجراحة عن الطب الباطني، وأول من خاط الأعضاء بخيوط مصنوعة من الأمعاء.

أعطى الرازي في مؤلفه الحادي عشر كل مترجم حقه، سواء كان يونانيًا أم فارسيًا أم هنديًا أم عربيًا. وقد كان الكتاب مقيدًا بسلسلة ضخمة خوفًا من السرقة، ولما أراد الملك لويس الحادي عشر استعارته لمعالجته وأسرته عودل الكتاب بالذهب والفضة.

الكتب العربية في الجراحة

إن كتب ابن سينا، والزهراوي، والرازي، وغيرهم من أطبائنا، كانت مراجع الدراسة التي اعتمد عليها الغرب في نهضته المعاصرة. وكان كتاب "القانون في الطب" مصدرهم في الدراسة حتى فاق الاعتماد على كتب اليونان مثل جالينوس وأبقراط، وظهرت نسخة منه مترجمة في ميلانو سنة ١٤٧٩م.

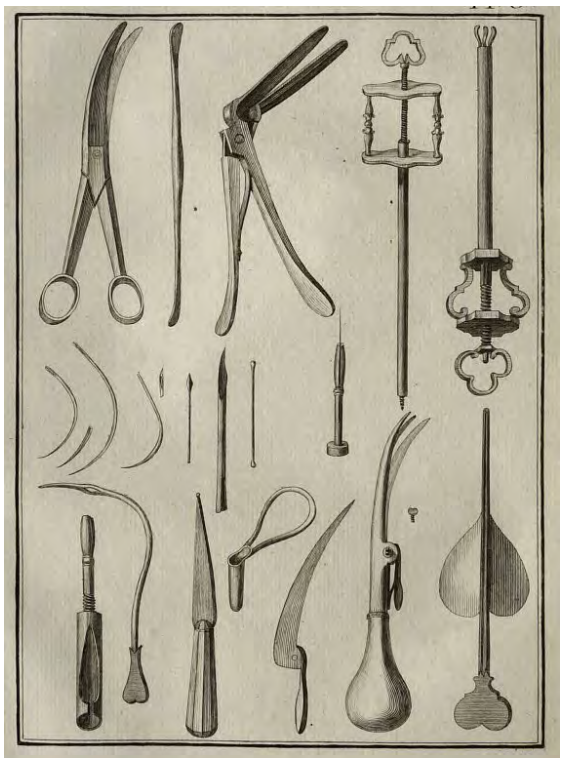

وقد طبع بعد المنصوري والحاوي، ووصلت طبعات القانون العشرين طبعة حتى القرن السابع عشر، وكان "الكتاب الملكي" شاملاً لعلوم الطب، وهو خير من أنار طريق الطب لأطباء الغرب. كما أعطى الزهراوي الأندلسي في كتابه "التعريف لمن عجز عن التأليف" خلاصة تجاربه في الجراحة، بما يمكن أن نعدّه مؤسس علم الجراحة في الغرب، وآخر طبعة لكتابه كانت في أكسفورد سنة ١٧٧٨م. ولا بد من ذكر ابن زهر الأشبيلي الذي ألف "التيسير في المداواة والتدبير" ليضاهي ابن رشد في كتبه.

من دراسة هذه الكتب العربية في الجراحة يمكن أن نعرف بصورة دقيقة تطور تاريخ اللغة العربية في الطب والعلوم. ومن الطريف أن العالِم "هارت مان" كان مكلفًا بـ"الكتاب الملكي" لـ"علي بن عباس"، ولما حصل عليه علِم بأنه مترجم إلى اللاتينية. والحق أن علماء الغرب المنصفون ذكروا فضل العرب والمسلمين وعلومهم، على حضارتهم؛ مثل هونكة، وكوستاف لوبون، وأوديت بتي.. وقال المنصفون إن "ابن النفيس" اكتشف الدورة الدموية قبل "وليم هارفي" بأربعة قرون.

إن دراسة لغة الأطباء العرب وتطورها التاريخي خير مصدر لتاريخ اللغة العربية، إضافة إلى كتب الهندسة والفلك والعلوم المتنوعة التي قامت حضارة الغرب عليها، فعسى أن تدرس لغة هذه الكتب التي ألفها العرب لمعرفة جذور تاريخ اللغة العربية العلمي وتطوره.

بين التراث والمعاصرة

كنت أظن أن عودة "رفاعة رافع الطهطاوي" وتأسيس مدرسة الألسن سنة ١٨٣٩م في الأزبكية، هي بداية دخول العلوم الغربية وترجمتها إلى الشرق العربي، ولكني وجدت بداية جيدة لتاريخ اللغة العربية الحديثة في الهند، ولذا يجب العناية بها لمعرفة تاريخ اللغة العربية الحديثة في المدارس الإسلامية التي درست الطب والعلوم في اللغة العربية.

وقد استعانت المدارس الحديثة في عهد "الطهطاوي" بهذه الحركة الهندية الإسلامية، وجلبت بعض الكتب الطبية التي كانت تدرس في تلك المدارس، ومن هذه الكتب "أنيس المشرحين" الموجودة نسخة منه في دار الكتب المصرية في طبعته التاسعة، وهي مدار هذا المقال الذي يظهر أن الدكتور "هوبر روبرت" صاحب كتاب "أنيس المشرحين"، يقول فيه: "وله ذيل في الألفاظ الإنجليزية وترجمتها إلى العربية، كُلْكَتَّة ١٨٣٦م".

وباستعراض اسم "هوبر" من الأطباء، تبين أنه ولد في عام ١٧٧٣م وتوفي عام ١٨٣٥م، وكان طبيبًا دائم الترحال بين أمريكا وجنيف، وقد طبع كتابه في لندن عام ١٨٠٤م، ولم تظهر القرائن أية علاقة له بـ"كُلْكَتَّا" ولا بشركة الهند الشرقية. ولعل المستشرق الإنجليزي "جون تايتلر" كان قد حمل الكتاب معه إلى مدينة "كلكتا" أثناء عمله مع شركة الهند الشرقية، ثم بدا له أن يترجمه وقد فعل. ومن آثار "جون تايتلر"، "الفصول الأبقراطية في الأصول الطبية"، لمترجمها "حنين بن إسحق" (كلكتا ١٨٣٢م).

كان خليفة عبد اللطيف -ويبدو أنه من علماء الهند- أعان "تايتلر" على ترجمة ووضع ذيل "أنيس المشرحين"، مستندًا إلى كتب الزهراوي الطبيب الجراح

المعروف في أوروبا، والمعروفة كتبه في باريس وبال والأندلس وغيرها من البلاد الغربية.

ما يقوي ما ذهبنا إليه، أن خليفة عبد اللطيف هو عالم من علماء الهند لا مصر، بما قاله الدكتور أحمد خان: "لم يقم أحد أو قُلْ لم يستطع أحد من المستشرقين هنا، أن يخرج كتابًا عربيًّا محققًا دون مساعدة عالم من علماء الهند، وعلى الرغم من خدماتهم الجليلة ومساعدتهم الوافرة، لا يعرفهم إلا القليل في شبه القارة فضلاً عن خارجها" (معجم المطبوعات).

الدليل القوى الثاني، أن خليفة عبد اللطيف هو الذي وضع الذيل وترجمه، وما تشهد به القرائن والسنن الجارية في ذلك الوقت؛ أن الدكتور "براون" -وهو فرنسي من أركان مدرسة الطب في القاهرة- كان قد وضع كتاب "الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية" في ثلاثة أجزاء وطبع في القاهرة عام ١٢٦٠هـ، وألحق به ذيلاً وجعله معجمًا للمصطلحات الكيماوية التي وردت في الكتاب، ورتب هذا الذيل على حروف المعجم وترجمها الشيخ محمد عمر التونسي.

لدليل الثالث، أن أسماء الكتب المسجوعة نفسها تشهد أمثال هذين العالمين خليفة عبد اللطيف ومحمد عمر التونسي، الأول عارف بالإنجليزية والعربية، والثاني عارف بالفرنسية والعربية، وكلاهما عمل في قلم الترجمة دون ريب بوجه من الوجوه.

إن طبع كتب الطب، مثل مؤلفات عبد اللطيف البغدادي، والمجوسي، وابن سينا، اهتم واعتنى بها المستشرقون مثل برتن، وستارلنج الذي اعترف بفضل ابن النفيس في اكتشاف الدورة الدموية، وهو دليل على أن تاريخ اللغة العربية الحديثة مرتبط بأصولها في القديم، وهو حلقة ضرورية بين التراث والمعاصرة.

جهود مدرسة الطب العربية

إنه هو العمل نفسه الذي قام به علماء الأزهر بمساعدة الأجانب الذين ألفوا أو حاضروا في اللغات الأجنبية، فقد ذكر ذلك الدكتور الخطيب في الدورة السادسة والخمسين لمجمع اللغة العربية قائلاً: "وكانت جهود مدرسة الطب في القاهرة أخذت تثمر غنى العربية بآلاف

المصطلحات على مدى ستين عامًا (٨٢٧ - ٨٧٨م)، ونجح مدرسوها بهمة الدكتور "بيون" منذ تأسيسها في ترجمة قاموس القواميس الطبية، وهو أضخم وأشمل معجم حضاري في مجلداته، فيه مصطلحات العلوم.

وقد حمل هذا المعجم اسم "الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية"، ولم ينشر منه إلا حوالي مئة صفحة بإشراف الدكتور أحمد عيسى سليمان التونسي بإلحاح من الطبيب الفرنسي وتلميذه برون الذي قام بنشرها. وكان هذا العون خير وسيلة لتطور تارخ اللغة العربية، وفي هذا المعجم قائمة بالمصطلحات وما وضعها الشيخ التونسي تسجل تاريخ اللغة العربية في هذه الفترة. وفي "أنيس المشرحين" قام خليفة قبل هذا التاريخ بوضع المعجم، وشرح في المقدمة كيف فرق بين المصطلحات بإشارات واضحة وضعها لكل لغة فرنسية أو إنجليزية أو يونانية.

وحاليًّا تقوم جامعة الدول العربية من خلال مجلس وزراء الصحة العرب، بمشروع قومي كبير بإنشاء مؤسسات ومراكز علمية؛ لتعريب العلوم الصحية لتدريس الطب باللغة العربية كما كان سابقًا في كل الجامعات العربية. ■

(*) أستاذ جراحة التجميل المتفرغ والعميد الأسبق لكلية طب الإسكندرية / مصر.

hiragate.com

د. عماد عبد الرازق*

آفاق المعرفة
مظلة التعايش والحوار

لعلنا لا نجانب الصواب ولا نتخطى الحقيقة في القول إن المعرفة -كبناء عقلي متراكم من الخبرات والتجارب البشرية- تلعب دورًا محوريًّا في إرساء قيم الحوار والتعايش بين الأفراد والجماعات، بل بين الحضارات الإنسانية. فهي تسهم في فتح آفاق مشتركة من الحوار والتعايش، وتمهد السبل لتحقيق وإنجاز هذا التعايش والحوار. فأصحاب المعرفة هم أصحاب الرسالات والنظريات والمبادئ التي تكشف جهالات الآخرين، وتميط اللثام عما غمض من القضايا. وفي هذا السياق نشير إلى أن المعرفة في رسالتها

ليست مجرد أقاويل نظرية براقة، إنما هي واقع عملي تعمل على حماية كل بناء أوشك على الخراب أو كاد يتداعى.

من هنا، المعرفة تمثل دأبًا وسعيًا مستمرًّا بلا انقطاع نحو تفكير سليم يفضي إلى فعل سليم. لذا، الأفق المعرفي أوسع في انفتاحه على الآخر، وعلى كل فكرة جديدة من الأيدولوجيا التي تمثل النظرة الضيقة المتقوقعة داخل جمل وعبارات فارغة من كل معنى أو مضمون، أو تعابير جوفاء رنانة، لا تمت بصلة للواقع العملي.

وفي هذا السياق نلفت الانتباه إلى حقيقة مهمة قد يغفل عنها الكثيرون؛ وهي أن النهج المعرفي الحقيقي كامن في بنية الانفتاح على الشعوب وإنعاشها بالخيرات والموارد، حيث تعتمد المعرفة على التساؤل العملي الفلسفي، والبحث عن القيم المعاشة التي تتجاوز الأنانية والاحتكار السلطوي بصورة دائمة. فالإنسان الذي يسلك النهج المعرفي، هو إنسان يسمو ويرتقي بنظرته عن الشخصانية المفرطة والذاتية المقيتة، والمفاهيم الضيقة المنحصرة في جزئيات القضايا، ومبادؤه تنبثق عن وحدة الوجود وضرورة حمايتها من خلال نشر الحب والتغيير، وتحويل البشر إلى رموز معرفية من خلال مكافحة تجهيل الناس وتخديرهم بالآمال والمفاهيم العنصرية والعدائية والشوفينية والطائفية البغيضة.. ومن هنا تعمل المعرفة على إزالة الحواجز بين الشعوب بغية الوصول لتجمعات مدنية تشكل من خلالها نواة حية فعالة لمنظومة المعرفة الإنسانية.

فالمعرفة كأفق وبناء عقلاني تمتد نظرتها ورؤيتها إلى أوسع البقاع في العالم، لتتجاوز الإقليم والدولة وتغدو خلاصة ينهل منها الكثير في مختلف الدول. أيضًا المعرفة تسعى إلى تفعيل العمل الجماعي الذي يخلق الوعي والنهضة في نفوس الجماهير، من خلال تفعيل دور المنظمات المدنية التي تقلص درجات الهوة بين الناس من كل الشرائح والفئات. لذا يجب أن نؤكد هنا، أن المعرفة تستمد شرعيتها ووجودها من التعايش المشترك والمزيج الإنساني، وهي تمثل هنا الركيزة الحقيقية نحو بلوغ المجتمع المعرفي القائم على التشاركية في صنع الحياة.. فلا فضل لإنسان على إنسان إلا بما يحمل من وعي بالحب والوجود والمعرفة من خلال الفهم

إن المعرفة تستمد شرعيتها ووجودها من التعايش المشترك والمزيج الإنساني، وهي تمثل الركيزة الحقيقية نحو بلوغ المجتمع المعرفي القائم على التشاركية في صنع الحياة. فلا فضل لإنسان على إنسان إلا بما يحمل من وعي بالحب والوجود والمعرفة.

والإيمان، والتطلع لإدراك الحياة كحقيقة تامة. وهذا يمثل الزوال النهائي لحقب الصراعات القهرية.

ولا بد في هذا الصدد التأكيد على أن الصراع، ضد الجهالة ومفرداتها، من حقد وتعصب وعنصرية. والمؤسسات التي تبني التشاركية في صنع القرار، فإنها في المقابل تحتاج إلى وعي معرفي وجمالي لقيادة الحياة. من هنا فالغطاء المعرفي هو الغطاء الأسمى لإعادة الثروات الوجودية لقاطنيها بالقضاء على ذهنية الاحتكار والتقويض والإقصاء. فالفكر المعرفي بوجه عام، يسهم في زوال المفاهيم المكبلة لحيوية الفكر الناشط المبدع. والمنهج المعرفي منهج أخلاقي قائم بذاته ويختزل القيم التي نادت بها كافة العقائد والنظريات والمذاهب، التي كان لها الأثر في الميراث الحضاري، والتي تحتكم إلى عودة الإنسان إلى التشبث بروح الحضارة المعرفية.

ولعلنا في هذا الإطار نشير إلى أن المعرفة ترسخ لقيم مهمة جدًّا، لعل أبرزها قيم التعايش مع الآخر على أساس الفهم، وعلى أساس تقبل الآخر.. فالآفاق المعرفية تفتح الباب على مصراعيه للغة الحوار العقلاني القائم على أساس احترام خصوصية الآخر. كذلك المعرفة تمثل تصالح الإنسان مع حريته؛ فالنهضة المعرفية هي ثورة في عالم الأخلاق، ومن هنا يعمل المعرفي -أيْ من يمتلك معرفة- على جعل الحب فلسفة تعايش تخرج عن كونها عاطفة داخلية إلى العالم، وتعمق في مدلولاتها الحياة ودفع الإنسان من خلالها للبذل والعطاء، من أجل اجتماع المعرفيين في أنحاء الوجود للحوار. والوسائل التي ترتكز عليها المعرفة أو المعرفي في نشر أفكارهم، هي وسائل معرفية ترتقي وتسمو عن أسباب العنف والإكراه والتهميش والإقصاء.. إنها تعتمد

hiragate.com

على مخزون الإدراك في تفعيل قيم الحوار والتعايش، من أجل ابتكار الرؤى والأفكار الجديدة، لأن المعرفة ما هي إلا أفكار تسمو بالحب والتعايش فوق الأطر الأيديولوجية الهدامة التي يسعى لنشرها والترويج لها دعاة الجهالة والإقصاء. وبناء على ذلك، تعمل الوسائل المعرفية على إثارة وتحفيز الأخلاق والقيم السامية لبيان الأفضل ونبذ الإقصاء، وبناء جسر من التواصل بين المجتمعات والحضارات.. هذا الجسر قائم على أساس راسخ وفعال من الحوار، وجعل هذا الحوار هو الأساس وهو الغاية، وذلك من أجل الوصول إلى الغاية القصوى وهي التعايش بين الحضارات والأفراد والمجتمعات، في ظل علم يموج بالتغيرات السريعة على مستوى الأصعدة.

وإذا نجحت المعرفة في بناء هذا الجسر من التعايش والحوار بين الأفراد والمجتمعات، سوف ينعم المجتمع بالأمن والأمان والاستقرار، وسوف تتحقق كل الأمنيات والغايات في إقامة مجتمعات متحابة تنبذ العنف والكراهية والإرهاب.

فالمعرفة تسعى إلى تفعيل رابطة واحدة من الإخاء والتعايش بين أفراد المجتمع، كما أنها تعمل على إزالة الحواجز بين الدول والأفراد؛ من أجل بناء مجتمع حواري يقوم على التعايش، والاعتراف بالآخر، والبعد عن الإقصاء والعنصرية.. ومن هنا، تتوافق المعرفة مع الأديان في نظرتها على تهذيب الأخلاق والسلوك البشري، والارتقاء به إلى أقصى درجة. كما تعمل الأخلاق وتسعى بقوة، من أجل تحسين القدرة التكيفية للتعايش البشري دون ارتكاب العنف الذي يرتكبه الذين يعانون من نقص فائض في العاطفة والتوازن الداخلي. من ثم، ترسخ المعرفة وتعمل على تأسيس أنظمة تعددية ديمقراطية للحكم، من خلال دمج كافة المؤسسات السياسية والثقافية والاجتماعية، واشتراكهم في تداول الإدارة والانفتاح الاقتصادي.

فالمعرفة دائمًا ما تبرهن على حقيقة القيم والاعتراف بها في توجيه سلوك الفرد والمجتمع، وتعمل على ترسيخ تلك القيم من تسامح وتعايش وحوار يسري ويشيع بين أفراد المجتمع الواحد حتى لو وجدت خلافات أو تعددية في الأديان أو المذاهب الثقافية. إذن، يجب تعزيز

hiragate.com

المحتوى المعرفي ودعم المثقفين والكتاب، ودُور النشر محليًا وعربيًا وعالميًا، للاضطلاع بدورهم المنوط بهم في دعم قضايا الحوار والتعايش والتسامح، باعتبارهم قادة الرأي ولديهم من الأفكار والمبادرات والإبداعات ما يمكنهم من تعزيز هذه القيم السامية مجتمعيًا وإنسانيًا.

لا شك أن تعزيز قيم الحوار والتعايش سوف يقضي على العنف، ويبني نهضة مجتمعية كبيرة تساهم في إحداث تقدم مجتمعي وحضاري، كما يحقق التنمية المنشودة في كل مجتمع. ولذلك لن يتحقق الاستقرار في جميع المجالات إلا إذا رسخنا لثقافة الحوار والتعايش والتنوع الفكري في نفوس المجتمع. فإرساء قواعد الحوار والتعايش، تعمل على حل المنازعات داخل المجتمع وإزالة الخلافات ورسم آليات للتفاهم. ولعل من أهم وسائل المعرفة التي تعمل على إرساء قيم الحوار، هو دور المؤسسات التعليمية كمؤسسات معرفية تلعب دورًا محوريًا في ترسيخ وإرساء قيم

الحوار والتعايش والتسامح في أذهان الطلاب. لذا، ينبغي أن يزوَّد الطلاب بفن الحديث والإقناع وقواعد الحوار وثقافة السلام، وأن تعزز حصص الطلاب بساعات للنقاش والمناظرات العلمية والفكرية.. كما ينبغي على المعلِّم أن يحصن نفسه بمهارات الاتصال وعلوم التنمية البشرية، كي يكون قادرًا على العطاء والبذل. هذا في مستوى التعليم ما قبل الجامعي.

أما في التعليم الجامعي الذي فيه يتشكل ذهن الطالب في مرحلة مهمة من حياته، فإنه يجب على الجامعة أن تعزز الحوار كمطلب أساسي في تكوين المهارات وتعزيز القدرات الفردية والجامعية، وتجعله ركيزة أساسية أولى في التفاعل بين مختلف العناصر التعليمية، خصوصًا بين الطلبة والهيئة التدريسية؛ مما يساهم في تعميق ثقافة الحوار والنقاش والتعايش مع الآخر وتقبله.. كما يساهم في تنمية القدرات الحوارية وتفعيل التفكير الناقد الذي يفتح آفاق التعايش والحوار بين أفراد المجتمع.

وفي هذا السياق، نشير إلى أنه لما كان الحوار عملية حيوية لنقل الأفكار بين المجتمعات وتنمية القدرات الشخصية لدى الأفراد نحو قضايا محددة ومعينة، فإن أفضل الميادين خصوبة من أجل تعزيز ثقافة الحوار وتنميتها، هو ميدان التربية والتعليم ومؤسساتها المختلفة، وهي من الوسائل المهمة التي تعنى بنشر الوعي وغرس القيم، وتنمية القدرات وصقل الشخصية بالأفكار.. وبالتالي فإنه من الطبيعي القول بضرورة تحمل المؤسسات الجامعية المسؤوليةَ في تأسيس وترسيخ ونشر ثقافة الحوار والتعايش بين طلبتها، عبر تحويل فكرة احترام رأي الآخر والتحاور سلميًّا، إلى برنامج عملي سلوكي ومعرفي، وأسلوب يرفع الشباب إلى اعتماد المعلومة الموثقة، وتبادل الخبرات مع الأساتذة والزملاء من خلال أسلوب الحوار في الوسط الجامعي ابتداء، إلى الوسط الاجتماعي الأوسع.. مع ملاحظة أن الشريحة الطلابية عامة والجامعية خاصة، يجب أن تسهم بدور كبير وأساسي ومحوري في عملية نشر ثقافة الحوار والتعايش في المجتمع.

ومن هنا نشير إلى أنه للوصول إلى إنسان الحوار ومجتمع الحوار وثقافة الحوار والتعايش، فلا بد من توفير مناخ تسود فيه حرية التعبير عن الآراء وحرية التفكير، وهذا الذي دفع عددًا من المؤسسات التربوية إلى الدعوة إلى تأسيس ثقافة حوارية بين أبناء المجتمع الجامعي، من أجل بلورة مجتمع حواري يعيش فيه الأفراد متساوين في الحقوق والواجبات. ومن هنا برزت دواعي تعزيز الحوار في البيئة الجامعية من أجل ضمان استقرار المجتمع.

أيضًا، من الوسائل المعرفية التي تعمل بفاعلية على ترسيخ قيم الحوار والتعايش؛ الصحافة. فالصحافة -بمختلف أنواعها- تلعب دورًا محوريًّا في توجيه الجماهير، وتدفعهم إلى تبني سياسات محددة تجاه قضايا معينة. ولا يختلف اثنان في عالمنا المعاصر، على أن كبريات الصحف والقنوات العالمية، لها الأثر الكبير في القرارات المحلية والدولية، كما أنها تسهم بشكل كبير في إرساء قيم الحوار والتعايش. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

آسية رضوان*

تكنولوجيا التواصل الحديثة والتغيير المجتمعي

منذ أزيد من عقدين وثورة المعلومات تُحدث تغيرات جذرية تطال جوانب الحياة المعرفية والقيمية والاجتماعية للإنسان. هذه التغيرات تؤدي إلى زعزعة المواقف بسبب تجددها المستمر، وإلى تأسيس بنى مُعدلة جديدة تنال القبول ويُفسح لها المجال للانتشار شرقًا وغربًا قبل أن تتغير هي الأخرى بعد مدة. وأما المعلومات المسؤولة عن هذه التغيرات، فهي تستمد جل قوتها التأثيرية من طريقة تقديمها وليس من ذاتها، وهذا ما تشير إليه نظرية الخطاب.

يقدم "بيل آشكروفت" مفهوم الخطاب عند "ميشيل فوكو"، على أنه نظام من العبارات الذي يمكن من خلاله معرفة وتشكيل العالم، أي أن العالم يدخل حيز الوجود المعنوي عبر الخطاب نفسه، ولا وجود معنوي له بدونه. ولعل ما يميز

"الخطاب" عند "فوكو" هو قدرته على بناء الموضوع وليس فقط الحديث عنه، فبالنسبة له، يحمل الخطاب في ثناياه أكثر مما توفره الفكرة التقليدية للمصطلح، أي أنه أكثر من مجرد كلمات بسيطة تقدمها اللغة. فهو يستخدم هذه الأخيرة كأداة لتشكيل صورة لموضوع ما، هذه الصورة تمثل انعكاسًا لتصوُّر معين قد لا يتفق أبدًا مع حقيقة الموضوع.

في العالم الحديث، تصنف وتعرف الدول والأعراق والأديان، وفق صور نمطية جاهزة -أساسها خطاب معين- فيها القليل من الحقيقة والكثير من الخيال، تعد من طرف الأقوى، تنشر عبر مؤسسات مختصة، تتداول بمساعدة تكنولوجيا التواصل.. ثم يتبناها الجميع -بمن فيهم معظم المعنيين بها- فتتشكل هويتهم وفق تفاصيل الصورة حتى تختفي الحقيقة بعد أجيال لتحل محلها الصورة بالمطلق. ومن هذا، رُبِط الإسلام بالعنف والإرهاب حتى بات جل جيل الألفية الثانية من المسلمين يربط بدوره الإرهاب باللحية والثوب الطويل.

في الواقع، لا تعدو تكنولوجيا الاتصالات الحديثة أن تكون مجالًا لعرض الخطابات إذا جاز التعبير. غير أنه في حين ظل الإعلام الرسمي مهيمنًا على الساحة لعقود، محتكرًا حق التأثير على مستخدميه وبناء أنماط فكرية وسلوكية أحادية التوجه، خدمة للمخططات الرسمية، مرتكزًا على قوة الخطاب البنائية.. أسفر تطور تكنولوجيا الاتصال في العقدين الأخيرين، عن خلق إعلام موازٍ للإعلام الرسمي، من خصائصه التفلّت من آليات الرقابة التي تفرضها الحكومات على ما يصدر عن إعلامها المحلي. هذا الإعلام الموازي -على بساطته من الناحية التقنية- كان عينًا، يرى من خلالها العالم حقائق على الأرض اعتادت أن تكون محجوبة، وكان صوتًا لمن أسماه "أنطونيو غرامشي"؛ "التابع" الذي كان مجردًا قبلها من ميكانيزمات القوة، فلم يكن له صوت يوصل به رأيه إلى أن جاءت هذه الثورة فجعلت صوته مسموعًا.

خصائص كثيرة تتبادر إلى الذهن بمجرد التفكير في هذه النوافذ التفاعلية الجديدة.. خصائص ذات حدين؛ حد مشرق، ولعل أكثر ما يشرق فيه السرعة والحرية في الوصول، أي الوصول إلى والتفاعل مع المعلومة، أما

على الحد الآخر، فهذه الخصائص نفسها تصير وبالاً. فلإنْ كانت قوتها في البداية ظهرت في زيادة الوعي بما يجري على الأرض في كل البقاع، ومن ثم تحريك الغضب داخل النفوس تجاه العنف والتهميش والظلم مثلاً، أو اتجاه كل ما يستفز إنسانيتهم عمومًا، فإن ما وصلت إليه اليوم هو قتل الإنسانية في دواخلهم ليحلّ مكانها التعايش والتطبيع مع الألم والمعاناة ومع الدم. إن إمكانية ولوج جميع الفئات العمرية إلى كل معلومة مهما كانت درجة خطورتها، من شأنه أن يخلق نوعًا من الفوضى الاجتماعية التي قد لا يتمتع فيها الراشد بذلك الدور التقليدي في تحديد ما هو إيجابي أو سلبي، ويصير كل قادر على الولوج للإنترنت، مطلعًا على ما يقدمه ومستوعبًا لكل الأفكار والمعلومات مهما كانت، وهذا لا بد منعكس بالسلب على المجتمع. ناهيك عن مصيبة المعلومات المفبركة أو المضخمة التي تستهدف النيل من وحدة الأوطان بإذكاء النعرات بين أبناء المجتمع نفسه وبين أبناء الدين الواحد، فما بالك بما يفعله بين أبناء الثقافات المختلفة وما يبثه في نفوسهم من احتقان ومن رغبة في الانتقام!

فيما يتعلق بالقيم الثقافية، نقلت هذه التكنولوجيا العالمَ من عالم الجماعية إلى عالم تسيطر عليه الفردية، وهو ما أدى إلى انحصار طموحِ الفرد في ما يحقق مصالحه الخاصة غير عابئ بمصلحة الجماعة -الوطن أو الأمة- فتغيرت مع هذا التحول مفاهيمُ قيم أخرى كقيمتي الصواب والخطأ. ولعل هذا التحول، هو التحول الأخطر على الإطلاق لكون القيمتان أصبحتا نسبيتين إلى درجه

hiragate.com

تكاد تجعلهما يحتملان الشيء وضده، وهو ما يجعلهما تسيران نحو اللامعنى. كما أن إشارات التقييم (الإعجاب والسخرية) التي تسمح لكل مستخدم إنترنت أن يدلي برأيه حول موضوع أو فيديو أو صورة، تعطي صفة قبول المجتمع أو رفضه للمعطى؛ فتتشكل في ذهن البقية معاني جديدة للصواب مبنية على رأي المجتمع الممثل في تلك التقييمات، ويُحمل المتلقي على أن يسير مع التيار أو أن يتهم نفسه إنْ وجد نفسه بعيدًا عن الموافقة، في حين قد حصل المنشور على كثير من الإعجاب أو العكس.

يبدو الأمر هنا معقدًا جدًّا، لأن عدد التقييمات الإيجابية أو السلبية في فضاءات التواصل الافتراضي، مرتبط بعوامل عدة، نادرًا ما تكون جودة وقيمة الشيء المقيم جزءًا منها. فهناك من يتخذ التقييم عادة ويعبر دون الاطلاع على تفاصيل الموضوع، وهناك من يقيم على اعتبار علاقته بصاحب الموضوع، وهناك من هو غير قادر على استيعاب المحتوى إن لعمره أو لمستواه العلمي أو الفكري.. وقد يعطي كل ذلك انطباعًا معينًا قد لا يكون حقيقة رأي المجتمع، ولكنه يُتخذ اليوم كاستبيان مجتمعي تعاد من خلاله صياغة الأحكام والمفاهيم، والتدخل في المنظومة القيمية للمجتمع.

من الناحية الاجتماعية، حلت العلاقات الافتراضية القائمة بين "صور" ينشؤها أصحابها لتسويق أنفسهم، محل العلاقات الحقيقية. في البداية، كانت هذه العلاقات تؤثر سلبًا على العلاقات الأسرية والعائلية وعلاقات الصداقة، بانسحاب المرء والتوقف عن الوفاء بالتزاماته نحو هذه الأخيرة لاندماجه الروحي الكامل في علاقاته الافتراضية. غير أن ما نلحظه الآن أخطر؛ حيث بدأ الإنسان يستقدم خصائص العلاقات الافتراضية وما تقوم عليه من مظاهر، وما يطبعها من العمر القصير والمزاجية وعدم المسؤولية وغياب الالتزام، ويجعلها تحكم علاقاته الحقيقية التي يفترض أن الأصل فيها الديمومة والاهتمام بالجوهر، وأن تبنى على التقارب والصبر وبذل الجهد لأجل إسعاد الآخر، وليس هذا مستغرب في عالم أصبحت هشاشة الروابط الإنسانية سمة مميزة له، بل والسمة المميزة لحياة وصفها "باومان" بـ"السائلة".

باعتبارها فضاء لإنتاج واستقبال الخطاب، تملك تقنيات التواصل الحديثة قوة تأثيرية عظمى تعيد هيكلة مجتمعاتنا وبناء تمثلاتنا حول ذواتنا وحول الآخر، كما تعيد تشكيل منظوماتنا القيمية والأخلاقية، وتحكم علاقاتنا الاجتماعية، غير أننا -إلى الآن- عاجزين عن التنبؤ بمنحى التغير الذي تحدثه على المدى البعيد. هو الآن يبدو فوضى أكثر من شيء محدد المعالم، غير أن الأمل باق في أن تكون أجيال ما بعد صدمة ثورة التكنولوجيا أكثر وعيًا وأقل انبهارًا واستيلابًا فتطوعها لتوجيه التأثير نحو المنحى الإيجابي. ■

(*) كاتبة وباحثة / المغرب.

المراجع

(1) Gareth Griffiths, and Helen Tiffin Bill Ashcroft. 2013. POST-COLONIAL STUDIES, The Key Concepts. Third edition . New York : Routledge، 2013.

(2) Michel Foucault. 1972. The Archaeology of Knowledge and The Discourse on Language.Tr. A. M. Sheridan Smith. New York : Pantheon Books، 1972.

(1) الخوف السائل، زيجمونت باومان، المترجم: حجاج أبو جبر، بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ٢٠١٧.

سعيد سهمي*

كيف يؤثر المثقف في مجتمعه؟

هل المثقف اليوم، وفي ظل المتغيرات الحديثة، خاضع لتحولات المجتمع، أم هو مؤثر في مجتمعه ومساهم في تغيير واقعه؟

سؤال يطرح كثيرًا في دور المثقف الذي ساهم المجتمع وساهمت الدولة في تكوينه علميًّا وأدبيًّا وتقنيًّا، في ظل تزايد عدد المثقفين والموضوعين في هذه الخانة (المثقف)، بفعل التخرجات الكثيرة من المعاهد والجامعات والمؤسسات التربوية والمهنية، وهي فئات تعد في المجتمع العربي بالملايين لا بالآلاف. فقد يبدو للبعض بل للكثيرين أن المثقف مجرد عالة على المجتمع إذا هو لم يحصل على

وظيفة من الوظائف العمومية، وغالبًا ما تجده عالة على أسرته ووالديه في كثير من الأحيان، وهو ما يدعو إلى السؤال: ما جدوى الثقافة إذا كانت تُخَرّج هذا النوع من المثقفين؟

من هو المثقف؟

السؤال الأساس الذي ينبغي أن ننطلق منه هو حول مفهوم المثقف، وهو سؤال تفرضه الوضعية الصعبة التي يعيشها اليوم مَن يطلق عليه اسم "مثقف"، في غياب تأثيره بل وتغييبه عن هذا الواقع وعن هذا المجتمع.

ليس المثقف بالضرورة كاتبًا أو شاعرًا أو فنانًا أو معلمًا أو طالبًا جامعيًّا.. فتلك صفات ترتبط بمهمة معينة أو بوظيفة يؤديها الإنسان، وإنما يذهب عالم تاريخ اللغات (La Philologie) الفرنسي "أوغست كارتول" (Au-guste Cartaul les Fac-ultés) إلى اعتبار المثقف "هو ذلك الذي يضع ذكاءه وعلمه في خدمة كل الوظائف والكليات من حوله"؛ بمعنى آخر، هو ذلك الذي يوظف ثقافته في خدمة العالم من حوله.

وترتبط بعض الأدبيات الأخرى خاصة منها المثقف السياسي (Intellectuel) بطبقة الانتلجنتسيا (Intelligentsia) والتي تنسجم لغويًّا مع كلمة "النخبة" (élite) بمفهومها السياسي، ومن ثمة يكون الاهتمام السياسي والمشاركة السياسية من أبرز مقومات المثقف، انطلاقًا من كون التسمية ترتبط بالسياق الروسي حيث ظهرت كلمة (Intelligentsia) لتعني "النخبة" التي لديها رؤية خاصة للواقع السياسي.

بناء على هذين الرأيين، فإن مفهوم المثقف يرتبط بالوظيفة التي يقوم بها في مجتمعه، وهي وظيفة اجتماعية بالضرورة، وبذلك نشأت صورة المثقف لدى الفيلسوف الإيطالي "غرامشيط" (A. Gramsci) حين أكد على الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المثقف لمجتمعه بغض النظر عن تكوينه العلمي أو الأكاديمي، وكذلك جاء مفهوم "الالتزام" (l'engagement) عند "غرامشي"، أي الالتزام بالقضايا الاجتماعية، وهو التزام عبَّر عنه عدد من المثقفين المشاهير أمثال "سارتر" (J. P. Sartre) في انتقاده للسياسة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، و"ميشيل فوكو" (M. Foucault) الذي دافع عن المساجين، و"نعوم تشومسكي" (N. Chomsky) الذي يدين اليوم، السياسة الأمريكية في كتاباته؛ وبذلك فإن الالتزام ليس بالمفهوم الاجتماعي الضيق، بل إنه التزام بالدفاع عن الإنسان، بغض النظر عن البيئة أو الانتماء العرقي أو الأيديولوجي.

إذن، ليس كل من حصل على شهادة جامعية -مهما كان نوع هذه الشهادة- هو مثقف بالضرورة، إذا لم تُفده في المساهمة في تغير المجتمع وبنائه، بل إننا إذا عدنا إلى التاريخ وجدنا أن عددًا كبيرًا من هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الذين ساهموا في بناء الحضارة الإنسانية بكتاباتهم وأفكارهم، لم يحصلوا على شواهد جامعية عليا. وفي هذا السياق يرى "طه حسين" أن الأديب الذي يغيب عنده الالتزام الاجتماعي ما هو بكاتب. ومهما تعددت الطرق والمدارس التي يتأثر بها الأديب، إلا أن قيمة ما يكتبه ترتبط بالوجهة التي ينبغي أن تمتزج فيها الوظيفة الجمالية بالوظيفة الاجتماعية؛ ولعل في ذلك بعضًا من مفهوم التطهير عند "أرسطو".

إن المثقف، انطلاقًا من هذه المقدمة، هو بالضرورة ذلك الذي يساهم في تغيير المجتمع وفي التأثير في ما حوله من قضايا، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا كان المثقف قادرًا على تكوين نفسه تكوينًا أكاديميًّا، ثم تكوينًا اجتماعيًّا كافيًا.

المثقف وهاجس الوظيفة

إن معظم المثقفين يرون في ما يحصلون عليه من شهادات جامعية، له دافع واحد هو الحصول على وظيفة، وإذا كان هذا من حقهم طبعًا، إلا أن انتظار الوظيفة وتغييب الأدوار الأخرى يبقى مشكلاً وعائقًا أمام قيام هذا المثقف بمهامه الأساسية. نعم، يجب أن يكون هناك نضال من أجل الحصول على وظيفة، لكن لا بد من أن يقترن هذا النضال بالعمل، وهذا العمل ينبغي أن يتجاوز البحث عن الخبز اليومي إلى خدمة المجتمع، حيث لا بد أن يقترن نضال المثقف بالواقعي وباليومي في إغاثة المظلومين والمهمشين في المجتمع، لأن غنى المثقف وثروته الحقيقية هي قدرته

hiragate.com

على الإنتاج والكتابة والتعبير والنضال بالكلمة وبالفعل أيضًا، وهذا ما لا يمتلكه عامة الناس.

إننا حين نجد أن الأساتذة -مثلاً- والطلبة والموظفين والفنانين لا ينتجون نصًّا واحدًا، نقف مشدوهين أمام من يجدر به أن يكتب وأن يعبر وأن ينتقد إذا لم يكن الأستاذ والطالب والموظف، فإذا أنتج كل من مكانه ومن مقر وظيفته وعمله لا بد وبدون شك أن يوصل صوته، ولا بد أن يقترن المثقف بما حوله وليس مجرد ما يعيشه هو، فيبكي للقتيل، ويحزن للفقير، ويتألم للجائع، ويدافع عن حقوق المستضعفين والمنبوذين.

كيف يؤثر المثقف في مجتمعه

١- الكتابة والإنتاج الثقافي:

إن تأثير المثقف في المجتمع يتم من خلال الإنتاج الذي يقوم به إبداعًا أو فكرًا قبل أن يتحول ذلك إلى الفعل، وتعتبر الكتابة جزءًا لا يتجزأ من هذا الإنتاج البنّاء. فالكتابة جزء لا يتجزأ من عمل المثقف، والكتابة هنا نعني بها التعبير بشتى أوجهه، وقد أسهمت الرقمية في إيصال صوت الجميع عبر الإنتاج الأدبي والفني وغيره؛ لأننا إذا عدنا إلى سِيَر المثقّفين الكبار الذين غيروا تاريخ أوربا، نجدهم كانوا مبدعين وكتّابًا مهما كانت تخصصاتهم، في الطب أو الفيزياء أو الفلسفة أو الأدب، بل إن الكتابة كانت بينهم سجالاً، كما هو الحال بالنسبة لـ"سارتر" و"كامي" في القرن الماضي، حيث كانا يتنافسان في الإبداع رواية ومسرحًا وفكرًا وفلسفة، فكان التأثير واضحًا في أجيالهما.

إن الكتابة يمكنها أن تُجدي إذا كانت تمس حقيقة الواقع وتطرح الحلول لتغييره، ولا يمكننا أبدًا أن ننصت إلى مثقف صامت، فالكتابة بإمكانها أن تغير على المدى القريب أو المدى البعيد.

٢- المثقف والفعل:

"أن أكون يعني أن أفعل، ونحن دائمًا نختار كيف نفعل"، هذه المقولة لـ"سارتر" تلخص المعنى الوجودي للمثقف، فالفعل ضرورة حتمية بالنسبة للمثقف، فلا يمكننا أن ننصت لناقد أو كاتب لا أثر له في الواقع بالفعل والعمل والممارسة، في حين أن المثقف الممارس يكون قوله أوضح وأبلغ.

إن المثقف هو الذي يساهم في تغيير المجتمع وفي التأثير في ما حوله من قضايا، ولا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا كان المثقف قادرًا على تكوين نفسه تكوينًا أكاديميًّا، ثم تكوينًا اجتماعيًّا كافيًا.

والفعل يكون عبر بوابات متعددة، وعبر مؤسسات متباينة، منها جمعيات المجتمع المدني، التي ينبغي أن تؤسَّس لهذا الغرض، ومنها النقابة التي ينبغي أن تسهم في التغيير. وعلى المثقف الموظف الانخراط الفعلي في النقابة، التي لم يكن دورها هو الدفاع عن خبز الموظف فقط، وإنما كان من أدوارها تكوين المثقفين، وإن كنا للأسف الشديد نرى أن الكثيرين اتخذوا النقابة مطية سلبية للوصول إلى المناصب، فلا بد أن يكون للنقابة دور أساس في التغيير من خلال الوقوف على التكوينات العلمية للمساهمة في الالتفاف حول الطبقة العاملة وتحقيق آمالها.

إن الناس الفقراء والمعوزين والأميين يرون في المثقف أداةً للإصلاح وللتغيير، وإن المثقف الصامت في الواقع، يساهم في استمرار الأوضاع على ما هي عليه، لذلك لا بد من الحركة من أجل التغيير، ولتكن البداية من التنظيم الذاتي والإصلاح الذاتي وتحقيق الذات بمختلف الطرق الإيجابية؛ فالمثقف الذي لفظته الوظيفة العمومية، يمكنه أن يؤسس بمعية باقي المثقفين مقاولات أو مشاريع تنموية تضمن تشغيل باقي زملائه، عوض التعويل على الدولة.

إن حاجة الأمة إلى الإصلاح اليوم تبدو أكثر من أي وقت مضى، للحاق بالدول المتقدمة، وإن المسؤولية الكبرى تقع على عاتق المثقفين، ولن يتحقق ذلك إلا بالفعل وبالتأثير الإيجابي في الواقع لأجل التغيير، وليس بمجرد الانصياع لما تأتي به الحياة. ■

(*) كاتب وباحث مغربي.

hiragate.com

صابر عبد الفتاح المشرفي*

ستار الأُلفة

أثّر فيّ هذا المفهوم (ستار الألفة) كثيرًا عندما اطلعت عليه لأول مرة في كتابات الأستاذ النورسي رحمه الله. فقد كان رحمه الله، يشرح ما للإلف والعادة من أثر في الغفلة عن عظيم قدرة الله في آياته التي نراها ونشاهدها كل يوم في كتابه المنظور (الكون)، وكذلك الغفلة عن وجه عظيم من وجوه الإعجاز في آيات الله التي نستمع إليها أو نتلوها في كتابه المسطور (القرآن)؛ فالنظر إلى الآيات الكونية أو القرآنية من خلال ستار الأُلفة، يحجب عنا رؤية مدى الجمال المعجز في كل آية، ويخفي عنا بعضًا من وجوه الإعجاز

التي تتجلى في هذه الآيات.

ستار الألفة بين حكمة القرآن الحكيم ونظر العلوم الفلسفية

وبالمقارنة بين حكمة القرآن الحكيم والعلوم الفلسفية، يقرر الأستاذ النورسي أن القرآن الكريم ببياناته القوية النافذة، يمزّق غطاء الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، والتي لا تُذكر إلاّ على أنها عادية مألوفة مع أنها خوارق قدرةٍ بديعة. فالقرآن الكريم بتمزيقه ذلك الغطاء عن هذه الدلائل والآيات، يكشف عن حقائق عجيبة لذوي الشعور، ويلفت أنظارهم إلى ما فيها من دروس بالغة في العظة والاعتبار، ويفتح أمام العقول السوية والفطر النقية بابًا لكنوز من الدلائل المعجزة على قدرة الصانع الحكيم.

إن ستار الألفة مصيبة كبيرة، وإن الكثيرين معرَّضون لها، وإن الواقعين فيها غافلون عما يحدث حواليهم، إذ لا يبصرون الجمال الموجود في كتاب الكون كأنهم عُمي، ولا يسمعون صوت الحق من ألسنة الحوادث كأنهم صُمّ.

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

يحدثنا بعض المفسرين عن ستار الألفة وأثر البيان القرآني في تمزيق هذا الستار عن المألوفات وإعادة النظر في الكون بطريقة مختلفة قائلاً: "وهذه الطريقة في تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون؛ العجائب التي تفقدنا الألفة جدتها وغرابتها وإيحاءاتها للقلب والحس، وهي دعوة للإنسان أن يرتاد هذا الكون كالذي يراه أول مرة مفتوح العين، متوفّز الحس، حي القلب. وكم في هذه المشاهد المكرورة من عجيب، وكم فيها من غريب، وكم اختلجت العيون والقلوب وهي تطلع عليها أول مرة؛ ثم ألفتها ففقدت هزةَ المفاجأة، ودهشةَ المباغتة، وروعةَ النظرة الأولى إلى هذا المهرجان العجيب".

ثم تنتهي الآية ببيان أن هذه الدلائل الثمانية المذكورة في الآيات المألوفة لكل الناس المحيطة بنا من كل جانب.. إنما هي آيات معجزات بينات لقوم يعقلون، قوم ألقوا عن عقولهم "بلادة الألفة والغفلة"، واستقبلوا مشاهد الكون بحس متجدد، ونظرة مستطلعة، وقلب نوَّره الإيمان.. فالقرآن يدعونا في مثل هذه الآيات إلى أن نسير في هذا الكون كالرائد الذي يهبط إليه أول مرة، تلفت عينه كل ومضة، وتلفت سمعه كل نأمة، وتلفت حسه كل حركة، وتهز كيانه تلك الأعاجيب التي ما تني تتوالى على الأبصار والقلوب والمشاعر.

ومن ثم فالقلب العامر بالإيمان يتحرك في الكون بهذه الحساسية، ويحمل تقديرًا خاصًّا لما في الكون من جمال وتناسق وكمال، ويرى صاحبُه الكون برؤية جديدة، ويدرك مظاهره وما تشتمل عليه من جمال إدراكًا خاصًّا، فيحيا على الأرض شاعرًا أنه يتجول في مهرجان

من صنع الله آناء الليل وأطراف النهار.

وبالعودة إلى الأستاذ النورسي في حديثه عن نظرة الفلسفة إلى الكون -وهي النظرة العادية المحجوبة بستار الألفة عن بديع صنع الله لهذه الخوارق- نرى أنه يصفها بأنها تخفي جميع معجزات القدرة الإلهية وتسترها تحت غطاء الألفة والعادة، فتتجاوزها دون اكتراث، بل تتجاهلها دون مبالاة بها.. ثم يبين أن أعظم ما يلفت نظر هؤلاء هو ما شذ عن تناسق الخلقة وتردّى عن كمال الفطرة السليمة. فالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، ويحتاج من ذوي العقول والأفهام إلى إعمال الفكر والعقل في هذا النموذج المبدع، تراهم يُعرضون عنه ويحفلون بأفراد مختلفين في أشكالهم وهيئاتهم ملتمسين في النظر إليه والتأمل في خلقته وجوهًا من التعجب والاستغراب، كرجل له ثلاثة أرجل أو رأسان مثلاً، إلى آخر ذلك من الأمثلة التي ذكرها.

ستار الألفة خطر على إيمان المؤمن

ولخطورة الإلف والعادة وتغشيتها على القلوب والأبصار، تعرض الأستاذ فتح الله كولن لهذا الموضوع في كتابه "أسئلة العصر المحيِّرة"؛ حيث سئل عن الألفة وتأثيراتها السلبية على إيمان المرء وقدرته على النظر والتفكر في الكون. وبعد تعريف الألفة وتحديد مفهومها ذكر أن "حساسية الإنسان وإعجابه بجمال الوجود وجاذبيته، وإعجابه بالنظام الموجود الذي يعمل أدق من الساعة، وما يثيره هذا النظام في نفسه من مشاعر الفضول والدهشة، ثم زيادة خبرته ومعرفته بعد كل اكتشاف يتوصل إليه، ثم وصوله إلى التفكير المنهجي بعد ربط أجزاء معلوماته بعضها مع بعض.. هذه الأمور تحفز مشاعره وحركة ذهنه وفعالية روحه، وتجعله في يقظة روحية. أما إن بقي دون مشاعر ودون أحاسيس أمام آلاف من لوحات الجمال والنظام ودون أي مبالاة، لا يبحث عن أسباب ما يراه وعن حكمه، بل يمر لاهيًا غافلاً.. فهذه أمارة على موت أحاسيسه وروحه، وعمى بصيرته. فكتاب الكون المليء بالأسرار بالنسبة لهؤلاء لا يعني شيئًا، ولا تتفتح عوالم النفس الإنسانية أمام أنظارهم ورَقة ورقة: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُون﴾(يوسف:١٠٥)، لم يستفيدوا مما حدث ومضى، ولم يعتبروا مما يأتي أو يمضي.

ثم نراه يصف حال هؤلاء الذين وقعوا أسرى ستار الألفة بأنهم يشكون على الدوام من الضيق والملل والسأم، ومن الوتيرة الواحدة التي تسير عليها الحوادث. فكل شيء بالنسبة لهؤلاء فوضى، وكل شيء ظلام، وكل شيء دون معنى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا﴾(الأعراف:١٤٦).. ويقرر أن انتظار أي خير أو أي ثمرة من أمثال هؤلاء، عبث لا طائل تحته.

ثم يبين أن الموت المعنوي والاحتراق الداخلي هو المصير المحتوم، لكل من لم يبادر إلى الخلاص من رفع الغشاوة عن عينيه، وإعادة النظر والتأمل في حكم الكون والبحث عن أسراره الكامنة فيه، والإنصات بالسمع والقلب إلى الملأ الأعلى، وإلى الرسائل والإشارات الإلهية الواردة منه ومحاولة فهمها. وهنا تظهر حكمة إرسال الرسل وتأييدهم بالمعجزات من أجل تنبيه الغافلين، وتمزيق ستائر الألفة عمن أحاطوا أنفسهم بها، وتحطيم أسوار العادة أمام من سجنوا أنفسهم بداخلها. وهذا ما عمل عليه القرآن الكريم في مواضع عدة وبأساليب مختلفة، حيث بدد البيان السماوي الألفة بمئات من

تنبيهاته وإرشاداته، ودعانا إلى إعادة النظر في كل شيء حولنا، وأرشدنا إلى التفكر فيه، والتأمل في دلالاته على عظمة الصانع المبدع.

نوع آخر من ستار الألفة

يشير الأستاذ كولن في الموضع ذاته إلى نوع آخر من الألفة، وهو الألفة في الفكر والتفكير والتصور، ويبين أن هذا له انعكاساته السلبية على سلوك الإنسان وعلى عبادته؛ حيث يعني هذا النوع موت الهمة والحماسة، ويحل محلها الفتور وعدم المبالاة. والفرد المبتلى بهذا النوع، يزول عنه شعور الإحساس بالمسؤولية، والنفور من الإثم، فتتجمد عيناه ولا يبكي على خطاياه وآثامه التي يرتكبها. وهذا النوع من ستار الألفة إذا تمكن من العبد، تعذر عليه العودة إلى حالته الأولى من الشفافية ورقة القلب والتأثر بالمواعظ وسرعة الأوبة إلى الله تعالى، والتبرؤ من الذنوب والندم عليها. ومع ذلك فالعودة -وإن كانت متعذرة- فإنها ليست مستحيلة، ولكنها تحتاج إلى إعادة البناء وتجديد الروح ونفث المعاني النبيلة في هذه النفوس من جديد، وتذكيرها بالله وباليوم الآخر الفينة بعد الأخرى كما عبر القرآن عن ذلك في قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد:١٦).

هل من سبيل لتمزيق ستائر الألفة؟

يقرر الأستاذ كولن أن ستار الألفة مصيبة كبيرة، وأن الكثيرين معرَّضون لها، ويبين أن الواقعين فيها غافلون عما يحدث حواليهم، إذ لا يبصرون الجمال الموجود في كتاب الكون كأنهم عُمي، ولا يسمعون صوت الحق من ألسنة الحوادث كأنهم صُمّ. ويصف إيمانهم بأنه سطحي غير كافٍ، وعبادتهم بأنها باردة لا روح فيها ولا وجد، كما يفقدون حس المراقبة الذاتية في تعاملاتهم مع البشر.

لكنه يقدم بعض الإرشادات والنصائح لمن تردى في هذه الهوة، لعله يستطيع الخلاص منها ويستعيد سمعه وبصره المعنوي من جديد، فيقرر أن من سقط في هاوية الألفة يحتاج إلى بعض الإجراءات لكي تمتد يد عناية قوية نحوه فتخلصه. ومن ذلك:

- التأمل العميق وإمعان النظر في آيات الأنفس والآفاق.
- كثرة تذكر الموت والاستدعاء المستمر لمشاهد الآخرة.
- الانشغال بالوظائف الإيمانية والمهمات القلبية من أذكار وأوراد وغيرها.
- مطالعة الصفحات المشرقة من سير الصالحين والأولياء والأصفياء.
- تفريغ الأوقات لزيارة مؤسسات الخدمات الإيمانية والأعمال المجتمعية.
- تكوين صحبة إيمانية من ذوي الاهتمامات القلبية والعقلية والفكرية والثقافية المشغولة والمشغوفة بتجديد القلوب وتزكية الأنفس.

نسأل الله تعالى أن يمزق أستار الألفة عن أعيننا فتبصر، وأن يزيل حجب الغفلة عن قلوبنا فتدرك، وأن يلهمنا الخير والرشد في كل أعمالنا، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

هشام الحداد*

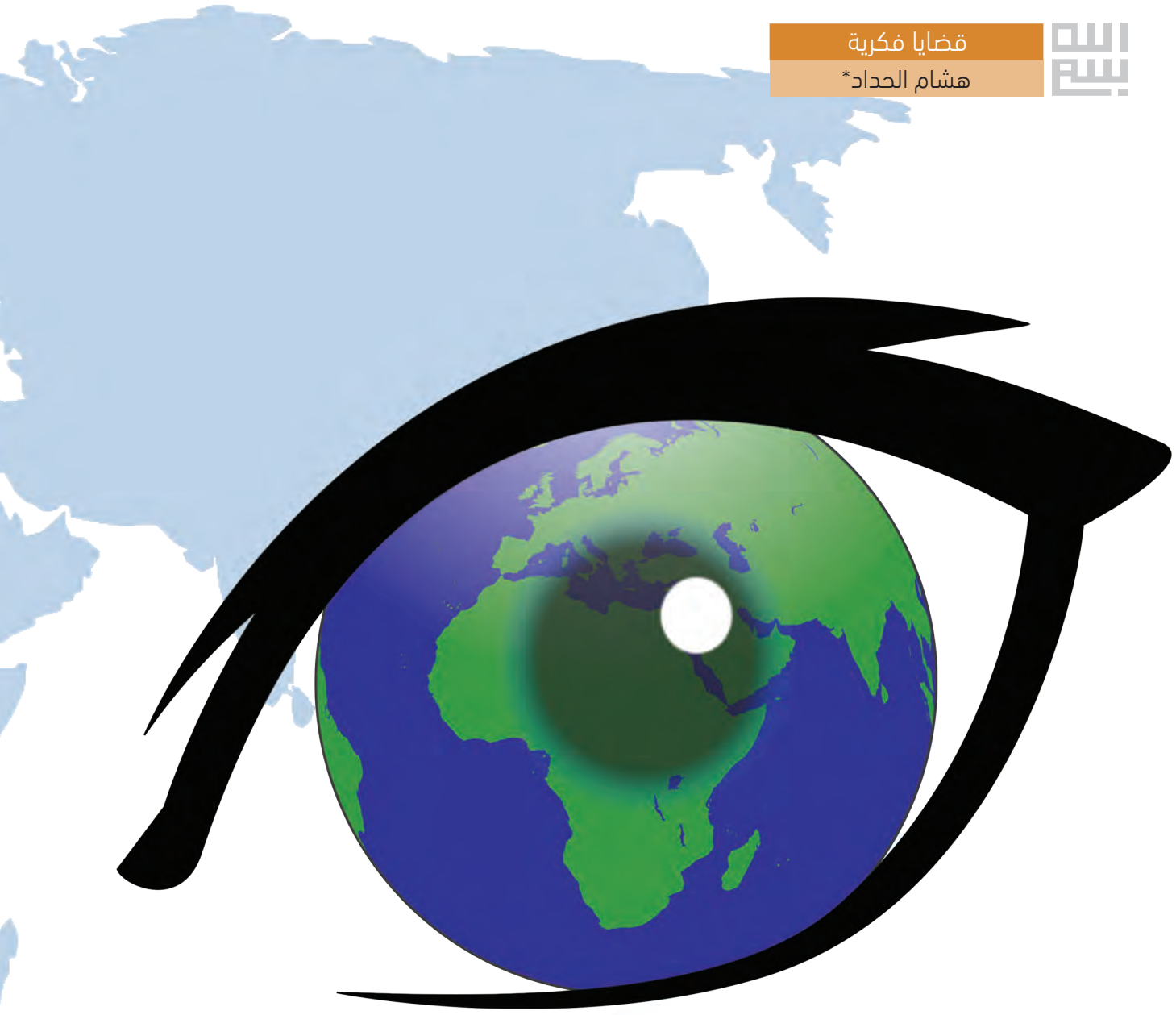

اقترِبْ فإنك من علَق

عندما نزل الكتاب المبين لم يُلغ ما تعلمه الإنسان ودوّنه لينتقل من غياهب الجهل إلى أنوار المعرفة، بل قال له -توكيدًا- إياك أن تتوقف، فأنت موصول بأعظم حقيقة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:١-٢). ثم ذكّره بالقلم خاصة، كأداة ترمز إلى وسائل المعرفة المادية التي تسجل جهده العلمي، بتدوينه لما تصوّره من حقائق، ليقرأ ما كتب، ويكتشف أنه لا يعرف

إلا القليل، فيهبّ إلى تعلّم ما لم يكن يعلم؛ ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٣-٥).

أتى التنزيل الحكيم لكي يقول لكل قارئ متأمل في هذا العالم الفسيح: إنك في رحلتك البحثية الاستكشافية، لن تعرف إلا بعض الأدلة المادية، وأنك لا تستطيع أن توظفها -مع معرفتك بها- إلا في جانب

إن الانتقال من وضعية مُجرّب على المادة، إلى وضعية عيش التجربة الإنسانية في ظل نظام الخلق الذي تريده أن يبقى لكي تنجح تجربتك على الذرة، لا يتحقق إلا بالاعتراف بسيد هذا النظام، والاصطفاف مع الساجدين

حراء

محدود لا يفي بحق النفخة الغائبة الكُنْه فيك، التي بها امتلكتَ الإرادة والقدرة على الاختيار، واكتسبتَ الجرأة على السؤال، والانطلاق نحو رحلة الاكتشاف والتجربة، بدءًا من تجربة النظر، وتجربة تفسير الكون والتاريخ والحياة.. ولكن دون إعراض عن تجربة البحث عن الحقيقة الكبرى؛ ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الصافات:٩٩).

"اقرأ" خاصةٌ بك أنتَ

هل يعرف الإنسان أن "اقرأ" شرّفته أيما تشريف؛ فالخالق عندما خاطب السموات والأرض قال: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾(فصلت:١١)، مع أن خلقهما أكبر وأعقد: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(غافر:٥٧).. وعندما خاطب مجتمع النحل قال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨)، لأن الأمر ههنا يتعلق بالجماد والحيوان، لا المخلوق المخير الذي استثناه الخالق من تِلْكُم الجبْرية المطلقة. ألا ترى أن الصيغة الأمرية في أول تنزيل قد عدَلتْ عن صيغة الكونية الجبرية "كُنْ"، إلى الاختيارية القرائية "اقرأ" تكريمًا للإرادة الإنسانية؟!

إن خطر القراءة باسم غير الله، لا يهدد سيرورة الكشف العلمي في عالم المادة فحسب، ولكنه يهدد ما من أجله يريد الإنسان أن يعلم ويعرف، بلوغ المدى في السعادة، سعادة الاهتداء إلى الحقيقة. ولذلك اعترض الخطاب المبين على تحقق السعادة مع الإصرار على الاستغناء عن صاحب الحقيقة الكلية: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَن رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧).

فمع ذهول الإنسان أمام ما توصل إليه من كشوف سيصيبه الغرور، ليس لأنه صنع ما يمكن أن يؤدي إلى دمار الإنسان وخراب إنسانيته، بل -والأدهى- لأنه راوده الشعور بالاستغناء عن القراءة "باسم الخالق"، فاطمأن إلى ذلك. إذ كيف تريد أن تستمر في الاكتشاف ورحلة البحث عن الحقيقة وأنت لا تريد الاعتراف بالمرجع الأسمى؟! أي منهج يجيز هذا؟! ألست أيها الإنسان، حينما ستسخّر وسائل المعرفة المرصودة لأجلك، سيظهر لك أن خلْقك كان "من علَق"، وهو عيْنُه ما تخبرك به رسالة الملك جل وعلا كي تنبهك إلى وجهة القراءة "باسم الله". أنت ستكتشف وستعرف وستتعلم كما فعلت ذلك من قبل، بل وأفضل. ولكن، لأنك محكوم في آخر المطاف بالرجوع إلى الذي خلقك وربّاك ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾(العلق:٨)، كيف يعقل أن تصر على إغفال المعرفة العلوية التي يمنحها الرب؟ كيف ستواجهه؟ أي مبرر ستقدمه بين يديه وأنت الذي كنت تقبَل جميع المراجع، بينما قرّرْتَ الإعراض عن أقْوم المصادر؟! خاصة وأن غايته أنه يريد أن ينقذك من الجهل، ويعرّفك بامتدادك في المستقبل، ويريد تخليصك من درك الانغماس في تجربة المادة مع الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾(الروم:٧).

في المختبر، يريد الباحث أن ينتهي بالتجربة إلى نتيجة، كي يحصل على الاعتراف بالذات والانتشاء بالانتصار على الجهل، لأن العلم من طبعه أن يُشعر بالسعادة. لكن، ما لا يعرفه الغافل، أن حقيقة علم الإنسان وكشفه أنه لم يكن مخترعًا، بل فقط استطاع أن ينظم المعارف والأشياء، ويرتب الشروط الظاهرة لنجاح التجربة، دون الانتباه إلى الآيات الخفية التي تسهر على سيرورة النظام.. إن رسالة القرآن ههنا إليك أيها المكتشف جدُّ صريحة، بل صادمة، وهي أن الطبيعة التي تشتغل عليها قد تفوقك معرفة، لأنها تعترف بمصدر الخلق وتمجّده: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾(الإسراء:٤٤). فالذرّة، تَنْجح تجربتُك عليها، لأنها مضطرة إلى الانتماء إلى نظام "الذي خلق"، وخروجها عن هذا النظام سيعقّد الأمر، وسيجعلك غير قادر على لمس المادة والسيطرة عليها: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(فاطر:٤١). ولذلك الجاهل بأن لعالم المادة قوانينه وسننه، لا تنفعه أماني الفوضى والهوى واللانظام؛ ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾(المؤمنون:٧١).

إن الانتقال من وضعية مُجرّب على المادة، إلى وضعية عيش التجربة الإنسانية في ظل نظام الخلق الذي تريده أن يبقى لكي تنجح تجربتك على الذرة، لا يتحقق إلا بالاعتراف بسيد هذا النظام، والاصطفاف مع الساجدين؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾(الحج:١٨).

من تجربة الكشف إلى تجربة السجود

إن الذي ربّاك، يخبرك أن تجربتك الكبرى لا يمكن أن تعيشها بدون تعرّف إلى الله، فهو نفسه الذي وضع نظام المعرفة وشروط نجاح التجربة، التجربة المادية والتجربة الإنسانية.. إنه الواحد الأحد، والنظام سيد الشهود: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾(الأنبياء:٢٢)، ولأن "ربك الذي خلق" هو "ربك الأكرم"، فبدهيّ أن يخبرك بصيغة التأكيد: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾(العلق:٨)، لأنه الوحيد الذي يحيط بالتفاصيل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾(العلق:١٤).

أنت تُخضع المادة لشتى أنواع النظر والرؤية بالعين والمجهر والمنظار، ولكنك أنت بظاهرك وباطنك تحت أدق مجهر على الإطلاق: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾(سبأ:٣). أنت فيك شيء من عالم الغيب يجعلك تتجاوز التراب الذي تسير عليه. وهذه المخلوقات مسخّرة، وأنت المجرّب الفاعل، لكن

hiragate.com

عقدك القديم مع الذي اخترعك وصنعك؛ أول ما ينبهك عليه، هو هذا النظام الذي أنت فيه نفسًا وأفقًا، أينما يمّمت النظر لا تجد غيره شاهدًا ومشهودًا، وإذا حاولت ادعاء العكس ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٤). بل أنت نفسك، كيانك الجسماني لا يستطيع أن يخرق النظام، لأن الخلايا توحّد اضطرارًا كي تستمر إلى غايتها. فالكل يصطف علامات دالة على الله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣).

وبعد أن تجد نفسك محاطًا بنداء الفطرة الجواني، وآيات نظام الخلق الملكوتي، يحاصرك التوحيد من كل المداخل، حتى عندما تجرؤ على افتراض أكثر من إله، تواجهك صورة مرعبة للصراع تهدم كل هذا النظام الذي به تتذوق معنى الحياة. وإذا أصررت، يبقى النظام، بينما تتسلل الفوضى إلى الروح: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(الحج:٣١).

اسجد واقترب

ولما كان الله يرى الظواهر، ويطلع على البواطن، علم قدْر صدق إقبالك على التجربة المكرّمة بالمعرفة العلوية، وهل فعلاً تريد أيها المستخلف، أن تعلم وترتقي في مدارج المعرفة بالفرار إلى واهب العلم وجميع النعم، أم أنك فاعل كاذب يدعي علم ما لم يكتشف سوى ظاهر نظامه، ثم عندما يُدْعَى إلى العلم الأكبر، يمتنع عن الظفر بالحقائق الكبرى التي ترشده وتُجلّي له العوالم الخفية. فهل يليق بك الانغماس الكلي في هذا المعلوم المادي لمعرفة بعض الحقيقة، ولا تفسح لنفسك الانغماس في تجربة تقودك إلى كل الحقيقة: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾(لقمان:٢٢)؟!

وإذا كنت أيها الإنسان، فقط بسبب معرفتك للأسماء قد كُرّمت، وبسببك عوقب إبليس لرفضه السجود لك، كيف بك عندما تؤمر أنت بالسجود

إن خطر القراءة باسم غير الله، لا يهدد سيرورة الكشف العلمي في عالم المادة فحسب، ولكنه يهدد ما من أجله يريد الإنسان أن يعلم ويعرف، بلوغ المدى في السعادة، سعادة الاهتداء إلى الحقيقة.

حراء

ليكتمل علمك بأسرار التوحيد تجادل وتماري؟! كيف بك تريد أن تتعلم الطبيعة لكي تعرف الخطأ فتضيء خطوة في طريق العلم، ولا تريد أن تتعلم التوحيد الذي يهبك النور الذي يزيل كل الظلام؟! ولذاك السبب، قبْل أن يذكّرك في سورة العلق بأن "الله يرى"، حذرك من خطر التكبر الذي يعمي البصيرة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۞ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ۞ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۞ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۞ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾(العلق:٩-١٤). إنها صراحة القرآن في مخاطبة الروع الواعي بالحقيقة، فلا داعي للإنكار والجحود، والتظاهر بأن سؤال التوحيد لا يطرق فؤادك وسمعك وبصرك: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾(النمل:١٤). ولذلك تعاقب الناصية بسبب كذبها وجحودها بالحق، وتناقضها حينما تقبل العيش في النظام الإلهي ولا تريد الاعتراف به في الوقت نفسه: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(العلق:١٥-١٦). ويوم المصير يفرض سؤال مؤلم نفسه: أين المصفقون على المعرفة المنفصلة عن الله؟.

إن القراءة باسم الرّب الذي خلق، تدل صاحبها على الطريق الموصل إلى الحقيقة الكبرى في الوجود، وتجعله مذعنًا لتجربة الاتصال بمقام القرب، وهذه التجربة التي لا يمكن عيشها دون رفض الازدواجية بكل صراحة وقوة: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾(العلق:١٩)، وبدون تواضع المخلوق من علق بين يدي الحي القيوم للاقتراب أكثر: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾(العلق:١٩). ■

(*) كاتب وأديب مغربي.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

الجينوم البشري
والتنبؤ بالأمراض

يتكون الجسم البشري من تريليونات الخلايا، وكل خلية تتكون من نواة وسيتوبلازم وغشاء يحفظ هذه المحتويات. أما النواة فتتكون من الحامض النووي "دي أن أي" (DNA) الذي يتكون في البشر والرئيسيات من شريطين يلتفان حول بعضهما على هيئة سلم حلزوني، ويبلغ عدد الكروموسومات التي توجد في كل خلية في جسم الإنسان على ٤٦ كروموسومًا، وتكون هذه الكروموسومات في أزواج، حيث تحتوي على ٢٣ زوجًا من

الكروموسومات.وكل كروموسوم هو جزيئة (DNA) طويلة لها مناطق فعالة تسمى الجينات. ويبلغ عدد المورثات (الجينات) الموجودة في نواة الخلية الواحدة ما يقرب من ١٠٠ ألف مورثة. وتحمل تلك الجينات (المورثات) جميع البروتينات اللازمة لجميع الكائنات الحية، وبدورها تحدد هذه البروتينات ضمن أشياء أخرى؛ كيف يبدو شكل الكائن الحي، وكيف يستقلب (Metabolize) جسمه الطعام أو يقاوم العدوى، وأحيانًا يحدد حتى الطريقة التي يتصرف بها.

وتتكون الجينات بدورها من سلسلة قواعد أو وحدات تسمى "نيوكليوتيدات" (Nucleotides)، وتتكون كل نيوكليوتيدة من قاعدة نتروجينية وجزيئة سكر خماسي وفوسفور. والقواعد النتروجينية على أربعة أنواع، هي الأذنين، والثايمين، والسيتوزين والجوانين ويرمز لها بالحروف A, T, C, G على التوالي. تتكرر هذه القواعد ملايين المرات في جزئية DNA.

وللأهمية العلمية والطبية لقراءة هذه المورثات، قامت مؤسسة في الولايات المتحدة الأمريكية بمتابعة هذا العمل أطلقت على نفسها Human Genome Organization، وقد خصصت لذلك مبلغًا قدره ٣ مليار دولار لهدف قراءة الخارطة الوراثية فقط (Gentic Mapping). وذلك يعني بالدرجة الأولى فتل الكروموسومات، وفك تلك الصيغ الكيميائية للجينات على كل كروموسوم، ومعرفة ترتيب المعلومات الوراثية الكاملة عند الإنسان، من خلال تحديد نوع وتسلسل الجينات الموجودة في الحقيبة الوراثية (Genome).

الجينوم البشري والتنبؤ بالأمراض قبل حدوثها

باكتشاف أسرار الجينوم البشري فتحت الأبواب أمام البحث العلمي، وأصبح بالإمكان معرفة استعداد الشخص للإصابة بمرض ما، كما سيكون بمقدرة الأطباء محاصرة أمراض وإيجاد علاج لأمراض أخرى حيرت العلماء، مثل السرطان أو الاكتئاب. فمفاتيح التركيبة الجينية تعطي الفرصة للتحكم أو على الأقل للتكهن بما قد يصيب الإنسان في المراحل المختلفة من حياته.

إن تعديل الجينات البشرية يحمل أملاً واعدًا في علاج العديد من الأمراض الوراثية، لكنه سلاحًا ذو حدين، فتحرير الجينات قد ينجم عنه طفرات وراثية لا يُعرف تأثيرها إلا بعد عقود طويلة من الزمان.

حراء

بكل بساطة وبدون مقدمات، يمكنك ويمكن لأي شخص كان، التنبؤ بالأمراض التي سيصاب بها مستقبلاً، ليس هذا فحسب، بل يمكن لأبويك معرفة الأمراض التي ستصاب بها أنت حتى قبل أن تولد. كيف ذلك؟ الإجابة على ذلك -وبكل بساطة- يأتي هذا من خلال فحص خريطتك الوراثية (الجينوم البشري) سواء كنت رجلاً أو طفلاً أو لا زلت في بطن أمك أو حتى يفكرون في إنجابك، إضافة إلى دراسة التاريخ الوراثي لعائلتك.

بقراءة هذه الخريطة تستطيع استلام تقرير كامل عن الأمراض التي ستصاب بها في المستقبل، أو التي سيصاب بها أولادك وأحفادك فيما لو فكرت بالزواج والإنجاب، حيث تحدِّد خريطة الجينوم كل التفاصيل الخاصة بكل جين: نوعه، موقعه من السلسلة الوراثية، تركيبه، علاقته بالجينات الأخرى.. ولن يتوقف اكتشاف الجينوم البشري على التنبؤ بالأمراض، ولكن سيحدث ثورات وانقلابات علمية وتكنولوجية وتقنية في علاج تلك الأمراض، وإجراء عمليات جراحة وراثية، إضافة إلى الثورات في تقنيات صناعة الأدوية.

وقد أكد العلماء أن من شأن رصد خلل في تكوين الحمض النووي، أن يسهّل عملية الوقاية من المرض قبل الإصابة به. وأشاروا إلى أن هذا الإجراء لا يعود بالفائدة في حقل الأمراض الوراثية فحسب، بل وفي غيرها من الأمراض التي قد يصاب بها الإنسان في حياته.

العلاج بالجينات لعبٌ بالناس أم نعمة؟

العلاج الجيني هو أحد تطبيقات الهندسة الوراثية، الذي يساهم في شفاء الكثير من الأمراض، بما فيها الأمراض الوراثية كالهيموفيليا (سيلان الدم)، وأمراض

hiragate.com

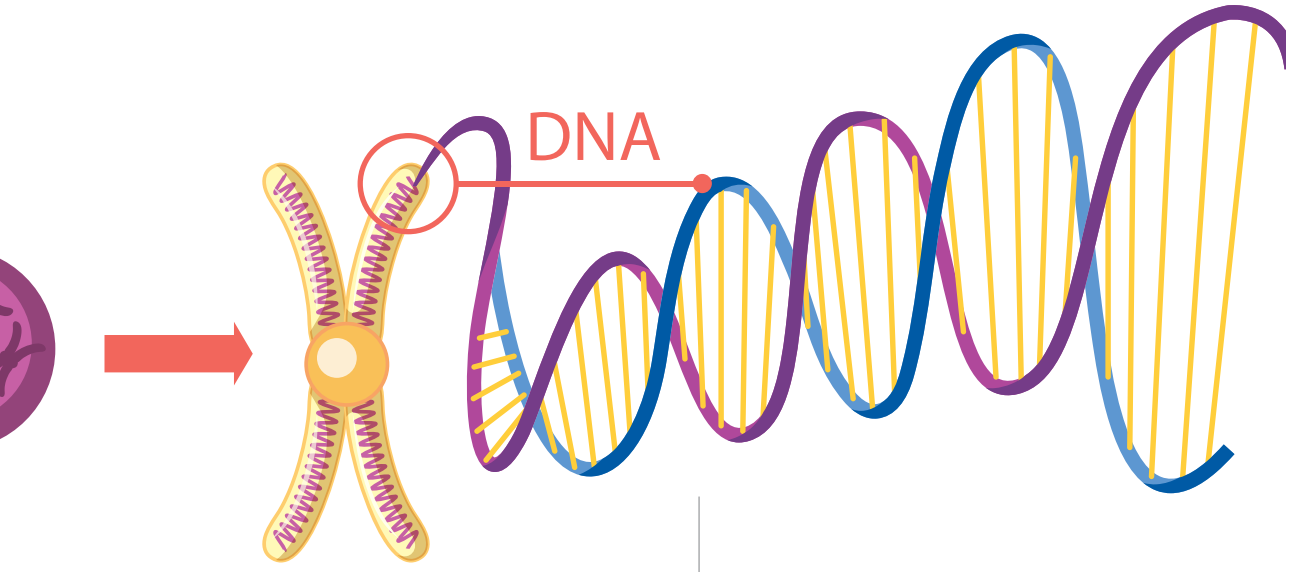

المناعة الذاتية كالروماتويد المفصلي والتليف الحويصلي، والأمراض المزمنة كالسرطان والأمراض المعدية كالإيدز.

ويمكن أن يعتبر العلاج بالجينات الوراثية خطوة رائدة في العالم، وخطوة تسبق الهندسة الوراثية التي قد تساهم في التخلص نهائيًا من أمراض فتاكة كالسرطان والتهاب الكبد ونقص المناعة.

ومن أهم الأمراض التي تناولها العلاج الجيني هو مرض السرطان، حيث نجح العلماء مؤخرًا في علاج فئران مصابة بالسرطان عن طريق العلاج الجيني. ويقول العلماء إن التقنية ذاتها، من الممكن أن تنجح على الإنسان، وقد بدأت بالفعل بعض التطبيقات تأخذ طريقها إلى النجاح.

وتعتمد فكرة العلاج الجيني لأمراض السرطان على خدعة بيولوجية يتم من خلالها زرع جين مدمر للخلايا السرطانية، بحيث تتعرف عليه الخلايا كأحد جيناتها الخاصة، وعندما تتم عملية ترجمة المادة الوراثية لهذا الجين، يعطي إشارة للخلية بالتدمير الذاتي، ويتم القضاء على الخلية السرطانية، بينما لا تتعرف الخلية الطبيعية على هذا الجين وبالتالي لا تصاب بالأذى.

وتعقد الكثير من الآمال المستقبلية على نجاح هذه التقنية لعلاج الكثير من الأمراض التي أصبح من الصعب علاجها.

فوائد العلاج الجيني

يمثل الجينوم ثورة علمية وقفزة في المعرفة، ومنافعه للبشرية هائلة إذا أُحْسِنَ استغلاله، من ذلك ما يلي:

أ- رسم خرائط الجينات البشرية، التي من خلالها يمكن التعامل مع السلوك البشري في توجيهه للأفضل والأكمل، مع كشف العلل والأمراض ومن ضمنها الأمراض المستعصية، والعمل على إيجاد العلاجات المناسبة والمباشرة لها، بل والوقوف على إمكانية الإصابة بالمرض في المستقبل قبل ظهور أعراضه. وفوق ذلك فإن "طب الجينات" يجعل من الممكن لأي شخص أن يتعرف على قائمة الأمراض التي سيصاب بها في حياته.

بـ- تعميق الاستفادة من خيرات الأرض، والتطوير للإنتاج الأفضل في الثروة الزراعية والحيوانية والمائية، وتسهيل فهم كثير من علل الأوبئة التي تصيب الطبيعة على وجه العموم فضلاً عن الإنسان.

جـ- فتح الآفاق للبحث في أسرار الكون، والإفادة من تسخيره للإنسان بغية الكشف عما يحقق مصلحته، فيتخطى البحث في علم الجينوم كوكب الأرض للنظر في إمكانية تطبيقه في الفضاء لملاءمة الظروف الفضائية لنجاح التجارب، وذلك بغرض إنتاج أجزاء من المادة الوراثية داخل الخلية بغية إيجاد معالِجات تساعد على إبعاد أعراض الشيخوخة، ولمحاولة إنتاج أنسجة وأعضاء بشرية.

hiragate.com

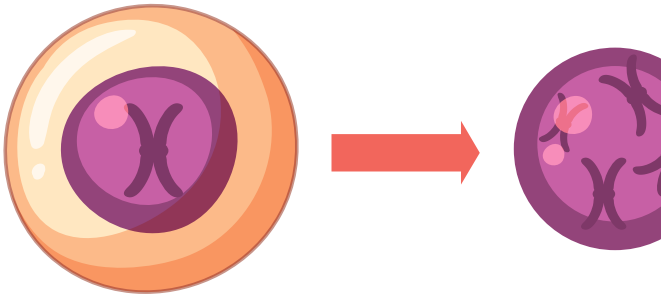

د- استعماله في التحري الجنائي والطب الشرعي، وذلك عن طريق بصمة الجينات DNA، الأمر الذي لا يخفى ما له من الأثر على كشف الجناة الحقيقيين، وتبرئة المتهم، وقضايا إثبات البنوة، والنسب، والاغتصاب، والتعرف على ضحايا الحوادث، خاصة وأنّ نسبة النجاح لإثبات الحقيقة بهذه الطريقة تصل إلى ٩٦٪.

هـ- تتخطى فوائد هذا العلم إلى استزراع منتجات تساعد في الكشف عن الألغام وبقايا آثار الحروب القابلة للانفجار، كالنحلة أو الزهور الكاشفة عن القنابل والألغام، والنباتات المؤثرة في تفكيك تلك المواد، وإيجاد مصادر بديلة للوقود عن طريق نباتات الهندسة الوراثية.

ودون تردد، فجميع هذه المصالح معتبرة؛ ففي طرفها البحثي العلمي، فإن الله ﷻ قد أذن بها قدرًا وشرعًا فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٥). وفي طرفها التطبيقي، فإن أدلة الشريعة وأصولها التي تؤيد الفكرة لا تنحصر، فكل مصلحة راجحة لحفظ الحياة وبقائها فهي معتبرة، والرجحان تحسمه نسب النجاح أو الإخفاق.

المحاذير

وينبغي أن نستحضر أنه لا يوجد شيء في الحياة يخلو من جانبين؛ إيجابي وسلبي. فمع منافع علم الجينوم، فإنه ينطوي على محاذير كثيرة أبرزها:

أولاً: ثورة الجينوم ليست أول اكتشاف علمي يصل إليه البشر يحقق الكثير من المصالح الضرورية والمهمة، ولكن خروج الإنسان عن قوانين الأخلاق، ربما أدى به إلى استغلال العلم للإضرار بعنصره البشري كالشأن في علم الذرة، فإنه لم يُقْتَصَر على استعماله في سياق منافعه، بل استُخْدِم لتدمير الإنسان في هيروشيما ونجازاكي باليابان.

كما ينبّه أحد الباحثين أن هناك خوفًا وحذرًا حقيقيين من استعمال الأدوية الجينية خاصة، ذلك أنها قد تدخل إلى جينوم الخلايا التكاثرية للمصاب وعندها ستنتقل من جيل إلى آخر، ولا يُعْرَف مدى خطورتها على أجيال المستقبل، فهي مغامرة بمصير الإنسان.

زاد اهتمام المجتمع الأمريكي في الآونة الأخيرة بكل ما هو متعلق بالجينوم البشري، وأصبح معظم أفراد المجتمع يرون أنه لا بد من إجراء اختبار تتابع الجينوم البشري الكامل، خاصة بعد إصابة الممثلة الأمريكية "أنجلينا جولي" بجين مسبب لمرض السرطان، وتفضيلها استئصال ثدييها بدلاً من أن تنتظر حتى يداهمها المرض، خاصة أن والدتها توفيت بالمرض نفسه.

ورغم أن اختبارات الجينوم ستؤدي إلى ثورة في مجال الطب، إلا أنه تثار حولها كثيرًا من المحاذير الأخلاقية، خاصة المتعلقة بالأجنة ومدى شرعية إجهاضها، إذا اكتشف الآباء وجود أمراض في الجينات التي تحملها، والتي ربما لا تظهر بعد الولادة مباشرة ويتم اكتشافها بعد خمسين سنة أو أكثر.

إن تعديل الجينات البشرية يحمل أملاً واعدًا في علاج العديد من الأمراض الوراثية، لكنه سلاح ذو حدين، فتحرير الجينات قد ينجم عنه طفرات وراثية لا يُعرف تأثيرها إلا بعد عقود طويلة من الزمان. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ماذا كان سيفعل الأشخاص لو أن هذه المعلومات كانت متاحة عند مولدهم؟ كيف كانوا سيتعاملون معها؟ وهل اكتشاف الوالدين لأحد الجينات المرضيّة في الأجنة كانت ستعد مبررًا لقيامهم بعمليات الإجهاض؟ ■

(٥) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

hiragate.com

فتح الله كولن

خصصوا في قلوبكم مقاعد للجميع

عندما يدخل الناس قلوبكم يجب ألاّ يقلقوا من البقاء واقفين. يجب أن تخصصوا في قلوبكم أماكن للجميع مهما اختلفت أفكارهم ومشاعرهم. قولوا للجميع بكل ثقة "لك أيضًا خصصنا مقعدًا هنا". إن تنمية هذه الروح يحتاج إلى تربية؛ يحتاج إلى تربية في الأسرة، كما يقتضي ألا يُفسد الشارعُ تلك التربية، ويحتاج إلى أن تحوّل المدرسة تلك التربية إلى علم، يحتاج إلى أن يرقى المسجد بتلك التربية إلى آفاق الروح. أما إذا كانت الأسرة محرومة، والشوارع ملوّثة، والمسجد أسير النمطيات، والمدرسة خالية من الحياة الروحية والقلبية، وإذا كان كل شيء يحوم حول المادة، والطبيعة، والوضعية -لا أدّعي أنها كذلك بل أقول "إذا كانت كذلك"- فلن يتحقق المراد.. أما إذا تم المراد، فهذه العناصر سيدعم بعضها بعضًا، ولن يهدم طرف ما بناه الآخر.. عندئذ لن تُهدر القيم التي تلقاها الفرد في بيته وبيئته الأسرية.. لن تهدر في الشارع، مثل النرد في طاولة القمار، بل سيأتي المسجد ليعمّق تلك القيم روحيًّا، وتأتي المدرسة تعلمه كيف

يقرأ السنن الكونية والأشياء والحوادث، وتحوّل التلميذ إلى إنسان يقرأ الكون بعمق، وبالتالي يتحقق التعمق. عند ذلك لا يُهدَم ما بُني، ولا يفسد الشارع ما غرسته الأسرة، ولا يتناقض المسجد مع البيت، ولا تتناقض المدرسة مع الأسرة.. وإذا سارت كلها في اتجاه واحد، يتخلص الإنسان من جسمانيته وطينيته -إلى حد ما- ويرتقي إلى حياة القلب والروح.. وعندئذ يشعر برحابة في نفسه، فيفتح صدره للجميع، ويسعى إلى إقامة روابط بينه وبين الناس جميعًا.

الالتزام بحسن الظن

إن الله يُخرج الحي من الميت، ويُخرج الميت من الحي، ويخرج النهار من الليل، ويجعل الشتاء ربيعًا.. فمن الضروري في هذا الأمر أن يلتزم المرء حُسْن الظن بالله على الدوام. يقول نبينا محمد ﷺ: "حُسْنُ الظن بالله تعالى من حُسْنِ العبادة" (رواه أبو داود)؛ حسن الظن في هذه الرواية يُذكر على إطلاقه، يركز بشكل خاص على حسن الظن بالله تعالى، حسن الظن بالذات الإلهية، حسن الظن بسيدنا روح الأنام ﷺ.

ومن البدهي أن حسن ظن المؤمنين ببعضهم، يمكن أن نجده ضمن فئة "حسن الظن من حسن العبادة". ذلك فإنه حتى في العصر الذي أظلمت فيه الأنحاء، وأقبل الشتاء، وامتلأتْ الأركان بأنَّات المظلومين، تنظرون فترون شفقًا مستطيلاً في الأفق، حتى إن أكثر الناس عمىً إذا نظر يقول: "والله إن الشمس لتشرق من وراء هذا"، لأنه شفق مستطيل لا يكذب. فليس الشفق المستطيل فحسب، بل "والفجر الكاذب" لا يكذب أيضًا. فمع أنه كاذب "فإن الفجر الصادق" هو أصدق شاهديه، فإذا لاح الفجر الكاذب، فهذا يعني أن الفجر الصادق آت خلفه، بإذن الله وعنايته.

من هذا المنطلق، وجب النظر إلى المستقبل دائمًا بأمل. أن يُنظر بعدَسَة حسن الظن بالله تعالى.. فإن حسن ظنكم به تعالى، مثل العدسة لا تخطئ أبدًا. بإذن الله وعنايته، ترون المسألة على هذا النحو. لذلك ينبغي أن نكون مفعمين بحسن الظن في مسألة أن الذات الإلهية، لن تضيع أبدًا أعمال من يقولون: "اللهم أرجو في كل عملي، الإخلاص، ورضاك، وخلاص العشق والاشتياق". فلن يخيب الله تعالى ظن السائرين إليه، ولن يجعلهم يتعثرون في طريقهم. يجب حسن الظن في أنه سوف يجعلهم يرفرفون مثل الحمائم في مواضع يستحيل فيها هذا، ويمكّنهم من الوصول إليه. أسأل الله ألاّ يحرمنا عنايته، وأن يعمر قلوبنا دائمًا بحسن الظن والرجاء والأمل. ■

(*) هذه النصوص مترجمة من دروس الأستاذ فتح الله كولن الخاصة. الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة.

د. أحمد تمام سليمان*

رأيٌ في شعر المناسبات

شعر المناسبات -فيما أرى- يُكتب بخصوص مناسبة محددة، لها عمق تاريخي أو بعد اجتماعي أو ظل أدبي؛ لأجل تذكُّرها والاحتفاء بها وإحيائها لدى الأجيال المتعاقبة. وقد تكون المناسبة محلية أو محدودة بالبيئة، وقد تتسع لتشمل الوطن أو الإقليم، وقد تمتد لتصير دولية أو عالمية، مما يعزز فكرة الانتماء أو إعلاء القيمة.

ولعل شعر المناسبات -فيما طالعنا- يُعد قضية جدلية؛ فيرى بعض النقاد ضآلة مكانته وربما حسبه على النظم لا الشعر، في الوقت الذي يراه بعضهم

من عيون الشعر. وأرى أن "المناسبة" بمنزلة الغرض الأدبي، كالمدح والهجاء والفخر والرثاء والغزل والحكمة.. إلخ، وليست المناسبة في حد ذاتها مطْعنًا على القصيدة التي قيلت فيها. فالقصيدة التي تُكتب لأجل المناسبة كأية قصيدة تُكتب في أي غرض أدبي، جيدها جيدٌ ورديئها رديءٌ، فهل لنا أن نقول إن قصيدة مدحية جيدةٌ ابتداءً لأنها نُظِمتْ في المدح؟! وقياسًا بالخُلْف، هل لنا أن نقول إن قصيدة هجائيةً رديئةٌ ابتداءً لأنها نُظِمتْ في الهجاء؟! إن جودة الشعر ورداءته تعود إلى معالجة الشاعر للمناسبة، أحسن إن أضاف وجدَّد، وأساء إن أعاد واجْتَرّ.

وهل نستطيع إغفال دور المناسبة كباعثٍ وراء النص؟! فالمناسبة بمنزلة أسباب النزول لآيات القرآن الكريم، وبمنزلة النوازل لأحكام الفقه الشريف، والنص الشعري وراءه مناسبةٌ خاصةٌ أو عامة، انفعل بها حسُّ الشاعر وفكره فنظم القصيدة، بل إن لدينا في شعر المناسبات بعدًا نصيًّا مضافًا، هو ذلك الركام الشعري السابق، الذي يدفع الشاعر إلى قراءته وتمثُّله وتحديه، فإما أن تخرج القصيدة باهتة أو ناصعة.

ولعلني أستطيع تشبيه شعر المناسبات من هذه الزاوية بشعر المعارضات، فالقصيدة الأولى تعدُّ النموذج أو المثال، وبمجاراتها أو معارضتها -حيث كانت الباعثَ- قد تتميز الثانية على الأولى، وقد تروج الجديدة عن القديمة لدى النقاد والقراء. فقد انفعل إمام المادحين أبو سعيد البوصيري في البردة؛ لأنه هو الذي أصيب بالفالج (الشلل)، وهو الذي رأى النبي ﷺ في منامه يحمل إليه بشرى الشفاء ودبيب العافية، لكن أمير الشعراء أحمد شوقي، انفعل بنص قصيدة البردة لا بتجربتها، فكان البوصيري أرهف حسًّا وكان شوقي أبلغ نصًّا.

وشعر المناسبات غزير لدى الشاعر عبد المجيد فرغلي (١٩٣٢-٢٠٠٩م)، لتطوافه بقصائده على شتى مناسبات أمته ووطنه، وتردده بين الديني والوطني، هذا في الغالب.. فقد تضيق به المناسبة لينظم في أمر ذاتي أو شخصي، مما يصلح لدراسته في ضوء أدب السيرة الذاتية، وقد تتسع به المناسبة لينظم في أمر قومي،

شعر المناسبات يُكتب بخصوص مناسبة محددة لها عمق تاريخي أو بعد اجتماعي أو ظل أدبي، لأجل تذكُّرها والاحتفاء بها وإحيائها لدى الأجيال المتعاقبة. وقد تكون المناسبة محلية أو محدودة بالبيئة، وقد تتسع لتشمل الوطن أو الإقليم.

كقصائده في استقلال إرادة الدول العربية وخروجها من رِبْقَةِ المحتل الأجنبي، مما يصلح لدراسته من خلال التأريخ لنضال الشعوب والدفاع عن القوميات.

وبعد الوقوف على أهمية شعر المناسبات، وتجلياته لدى الشاعر عبد المجيد فرغلي، تبين اتساع هذه المساحة الشعرية لديه، وثراء معالمها المعرفية والأسلوبية، فمنها المناسبات الدينية ولها القدح المعلى في شعره، مثل الهجرة واستهلال السَّنة الهجرية في محرم، والمولد النبوي في ربيع الأول، والإسراء والمعراج في رجب، وتحويل القبلة في ليلة النصف من شعبان، وصوم شهر

hiragate.com

رمضان وعيد الفطر، والحج وعيد الأضحى.. وغيرها كالغزوات (أو الفتوحات) والشخصيات الإسلامية والطقوس الصوفية. ثم المناسبات الوطنية، مثل ثورة يوليو ١٩٥٢م والتحول من النظام الملكي إلى الجمهوري، وعبور قناة السويس ١٩٧٣م والانتصار على إسرائيل. أو المناسبات القومية، مثل أعياد استقلال البلاد العربية عن المستعمر الأجنبي وتحرير إرادتها.

وليس الفصل بين المناسبات تعسُّفيًّا، فهناك تداخل مناسباتي بينها، كعبور قناة السويس في العاشر من رمضان، فجمعت المناسبة بين الديني والوطني، أو الديني والقومي؛ فلم يكن انتصار المصريين على إسرائيل انتصارًا للوطنية المصرية فحسب، بل للقومية العربية كلها. وهو استدعاء لما انطوى عليه التاريخ في حناياه، كانتصار المسلمين الأوائل في معركة بدر الكبرى، حيث إن رمضان يمثِّل الظرف الزماني للانتصارات المتعاقبة.

فيقول الشاعر من أبيات متفرِّقة من قصيدة "معجزة العبور" ضمن ديوان "لحن العبور":

اللهُ أَكْـبَـرُ جُـنْـدُ اللهِ قَـدْ وَثَـبُـوا

وَطَلْعَةُ النَّصْرِ عَنْهَا انْجَابَتِ الْحُجُبُ

مِنْ جَبْهَةِ الْعُرْبِ مِنْ أَقْصَى مَوَاقِعِهَا

هَبَّتْ لِسَحْقِ الْعِدَا وَالْأُفْقُ مُلْتَهِبُ

تَـمَّ الْـعُـبُورُ فَـتَـمَّـتْ فِـيهِ مُـعْـجِـزَةٌ

طَـاحَـتْ بِأُسْـطُورَةٍ فِي طَـيِّهَا كَـذِبُ

أُسْطُورَةُ الْجَيْشِ الَّذِي مَا كَانَ يَقْهَرُهُ

جَـيْـشٌ سِوَاهُ إِذَا مَـا جَـاءَ يَـحْـتَـرِبُ

أُسْـطُورَةٌ ظَـلَّ بُوقُ الزَّيْـفِ يَـنْـشُرُهَا

وَبِالدِّعَايَاتِ وَالتَّـضْـلِـيـلِ تُـجْـتَـذَبُ

كما يؤصِّل الشاعر لانتصارات المسلمين الكبرى ذات العمق التاريخي، والتي حدثتْ في رمضان أيضًا، فقد استلهم غزوة بدر ونظم في السابع عشر من رمضان ١٤٠٢هـ/٨ من يوليو ١٩٨٢م قصيدته "أضواءٌ من التاريخ" ضمن ديوان "دموعٌ وأنداءٌ"، حيث يقول في مطلعها:

رَنَـتْ أَعْـصُـرُ التَّارِيـخِ وَالْـتَـفَـتَ الدَّهْـرُ

وَأَرْسَى عَـلَى الْأَجْـيَالِ أَفْـلَاكَهُ الْـفِـكْـرُ

وَلَاحَتْ رُؤَى الْمَاضِي عَلَى أُفْقِ حَاضِرِي

وَمِنْهَا بَـدَتْ بِـيـضُ الصَّحَائِفِ تَـفْـتَـرُّ

أَرَى صَفَحَاتِ الْمَجْدِ يَهْفُو حَنِينُهَا

وَيُفْـضِي بِـهَا شَـوْقٌ يُـتَـرْجِـمُهُ الشِّـعْـرُ

تَبَسَّمَ مِنْهَا الـنُّـورُ وَالطُّهْـرُ وَالْـفِـدَى

وَطِـيـبًا لِـذِكْـرَاهَـا حَـلَا الطَّيُّ وَالـنَّـشْـرُ

لَـدَى لَـيْـلَـةٍ حَـفَّـتْ بِـبَـدْرٍ نُـجُـومُـهَـا

وَجَـمَـعَـهَـا بِـالـحُـبِّ مُـؤْتَـمَـرٌ نَـضْـرُ

ولم يكتف الشاعر باستلهام غزوة بدر، بل وظَّف بعض الظواهر البلاغية في حنايا قصيدته، كذكره "الطي والنشر"، الذي يُعرف أيضًا بـ"اللف والنشر"، وإن بدا المعنى العام لهما الإخفاء والذِّكر، فإن المعنى الخاص في اصطلاح البلاغيين أن يُذكر متعدِّدٌ، ثم يُذكر ما يندرج تحته من أفراده بشكل شائع دونما تحديد، استنادًا إلى تمييز المتلقي، وإما أن يكون النشر على ترتيب الطيّ، كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾(القصص:٧٣)، أو يكون النشر على خلاف ترتيب الطي، كقوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾(الإسراء:١٢).

بل إننا نلمس تداخل ما هو ذاتي أو شخصي مع شعر المناسبات، بحيث يمكن الوقوف على أطراف السيرة الذاتية للشاعر من أعطاف قصائده، فقد سافر ضمن البعثة التعليمية إلى مدينة بنغازي الليبية في منتصف أكتوبر ١٩٧٣م، وأدركه عيد الفطر المبارك هناك، فاستشعر الغربة لبعده عن وطنه، واستشعر الوحشة لبعده عن أسرته، فنظم قصيدته "بؤسٌ في يوم عيد" ضمن ديوان "الصرح الخالد"، التي يستهلها بالاستفهام الاستنكاري ويقول في أبيات متفرِّقة منها:

hiragate.com

نَعَمْ هُوَ عِيدٌ إِنَّمَا أَيْنَ أَوْلَادِي؟!

وَأَيْنَ أَحِبَّائِي الْكِرَامُ وَقُصَّادِي؟!

أَلَمْ أَكُ فِي عِيدِي أُحِسُّ بِلَوْعَةٍ

وَأَنِّيَ فِي وَادٍ وَأَهْلِيَ فِي وَادِي؟!

وَكَيْفَ يُحِسُّ الْمَرْءُ بِالْعِيدِ بَاسِمًا

وَبِالْعَيْشِ إِنْ لَمْ يَحْظَ فِيهِ بِإِسْعَادِ؟!

أَرَى أُسْرَتِي فِي الْعِيدِ غَيْرَ قَرِيبَةٍ

فَيَا لَوْعَتِي مِمَّا يَحْرِقُ أَكْبَادِي

تَبَاعُدُ أَوْلَادِي يَزِيدُ كَآبَتِي

وَيُشْعِرُنِي بِالْبُؤْسِ مَشْهَدُهُ بَادِي

إن دراسة تجليات رمضان في الشعر لا تقتصر على التحليلات النصية للقصائد، وإنما تتجاوز ذلك إلى الدراسات المتنوعة من منظور العلوم الإنسانية، كالأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها، حيث الطقوس والعادات والتقاليد والفنون، بل والأساطير أحيانًا، مما يميز شعبًا عن شعب، ويختلف من جيل إلى جيل، بدءًا بطقوس رؤية الهلال ومرورًا بالمظاهر الرمضانية، وانتهاءً بمشاهد عيد الفطر وازدياد تفصيلات هذه الأجواء لدى فئات معينة كالصوفية؛ كما بدا من تعلُّقهم بآل بيت النبوة والعتْرة الطاهرة، وفي مجالس الأقطاب ومريديهم، وهيئات الدراويش وسلوكهم، وزيارات مقامات ساداتهم، وتلاوة أورادهم وأذكارهم، وإنشاد تواشيحهم وابتهالاتهم.. إلخ.

ولأن رمضان هو شهر القرآن فإن تناص الشاعر مع الآيات القرآنية بادٍ في حنايا قصائده، لا سيما مع سورة الرحمن التي تأسر القلوب قبل الآذان، وتزدان بها مجالس الذكر، وتهتز أعواد المنابر بإشارات الخطباء إليها، وقد نظم الشاعر قصيدته "لقاءٌ في رحاب الرضوان" ضمن ديوان "في رحاب الرضوان"، عقب سهرةٍ رمضانية بمسجد الرضوان بمدينة صِدْفَا بمحافظة أسيوط، ملتزمًا رويَّ النون المكسورة والمسبوق بألف التأسيس؛ لتشابه القافية الفاصلة القرآنية وكأنهما شعًا من مشكاة واحدة، فيقول:

غَنَّى الْقَرِيضُ وَفِيكَ غَنَّى بُلْبُلٌ

مُتَرَنِّمٌ مِنْ سُورَةِ الرَّحْمَنِ

(فَبِأَيِّ آلَاءِ) الْإِلَهِ تَرَنُّمًا

تَشْدُو بِنَغْمَةِ طَائِرٍ وَلْهَانِ؟!

(وَبِأَيِّ آلَاءٍ) نُكَرِّمُ أَنْعُمًا

حَفَّتْ بِنَا وَأَحَطْنَ بِالْإِحْسَانِ؟!

(وَبِأَيِّ آلَاءٍ) نَزُفُّ صِيَامَنَا

وَقِيَامَنَا وَنَعُجُّ بِالشُّكْرَانِ؟!

(وَبِأَيِّ آلَاءٍ) نُوَدِّعُ شَهْرَنَا

بِالْبِرِّ وَالْعَبَرَاتِ مِنْ رَمَضَانِ؟!

ومجموع القصائد اثنتان وعشرون قصيدة، نُظِمَت ما بين ١٩٦٢ و١٩٩٩م، وبحورها سبعة، هي البسيط والكامل والطويل والمتقارب والوافر والخفيف والرمل، وبحر البسيط أكثرها ورودًا، كما هي الحال في المدائح النبوية كبردة البوصيري. في حين نظم فرغلي قصيدة واحدة لكلٍّ من بحور الوافر والخفيف والرمل. وعن التفاوت في عدد أبيات القصائد، فمنها القصيرة وأدناها أربعة وعشرون بيتًا، وهي قصيدة "عودوا إلى قِبلة أبيكم إبراهيم"، وثمانية وعشرون بيتًا وهما قصيدتا "حمائمُ وغصونٌ"، و"عودةٌ إلى الله". ويظل التدرج حتى نصل إلى أقصاها مائتيْن وتسعة أبيات، وهي قصيدة "لقاءٌ في رحاب الرِّضوان". وبعض القصائد نُشر منفردًا كقصيدة "عودةٌ إلى الله"، في المجلة العربية بالسعودية (العدد ١٤٠- رمضان ١٤٠٩هـ/ أبريل ١٩٨٩م).

وإن كان شهر رمضان يمثل الموضوع المحوري أو بيت القصيد، فإن ما نظمه في تحويل القبلة في ليلة النصف من شعبان، ثم رؤية الهلال بمنزلة الإرهاصات ويمثل براعة استهلال، وما نظمه في ليلة القدر ثم عيد الفطر، يمثل حسن الخواتيم. ■

(*) كلية الآداب، جامعة بني سويف / مصر.

hiragate.com

أ.د. بسمة سيف*

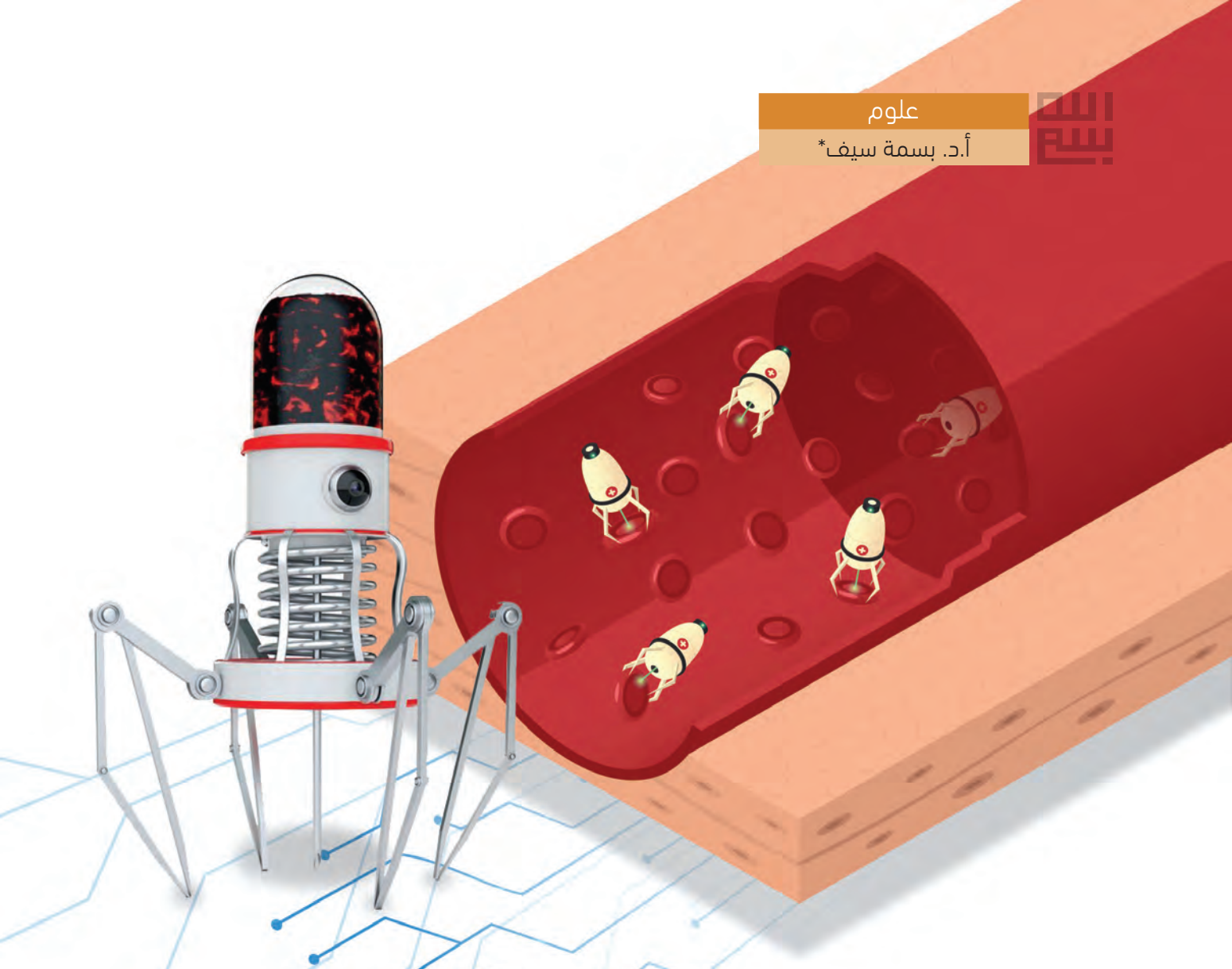

العفاريت النانوية وتلوثات البيئة

غالبًا ما توصف النانو تكنولوجي بأنها محرك الثورة الصناعية القادمة التي ستحل كمبيوترات بحجم المولیکولات (الخلايا) مكان رقيقات السيليكون. وستؤدي "نانوبوتات" (روبوتات مجهرية) وظائف تؤديها معامل تتكلف مليارات الدولارات، لذا تهتم الحكومات والهيئات العلمية المختصة في أمريكا وبريطانيا وغيرهما، بإجراء الدراسات والبحوث حول "المحاذير البيئية"، وإرشادات "السلامة المهنية" المرتبطة بـ"تقنية النانو".

الدرس الذي تعلمته البشرية من مشكلات تغير المناخ المتمثل في "الاحتباس الحراري" و"ثقب الأوزون" و"تلوث الماء والهواء والتربة" وغيرها من المشكلات البيئية، هو ضرورة الحذر والحيطة، وإجراء الدراسات المسبقة للتطبيقات التقنية والصناعية المختلفة.

عندما اقتحم "عفريت ماكسويل" (Maxwell`s demon) التاريخ العلمي، أجرى الفيزيائي الأسكوتلندي الشهير "جيمس كلارك ماكسويل" تجربة ذهنية في عام ١٨٦٧م تخيل فيها "مخلوقًا ذريًّا" يقف حارسًا على "بوابة ذرية" تقع بين وعاءين يحتويان على غاز فيمنع ذرات الغاز النشطة من اجتياز البوابة، ويسمح لتلك الأقل نشاطًا بعبورها لينتهي الأمر بتنظيم جزيئات الغاز، بحيث تجتمع الذرات النشطة في وعاء، وتبقى الذرات الأقل نشاطًا في الوعاء الآخر.

يعتبر الفيزيائي "جيمس ماكسويل" أحد أهم الفيزيائيين في التاريخ البشري، أن هذه التجربة الذهنية كانت مجرد محاولة لإثبات إمكانية انتهاك "القانون الثاني للديناميكا الحرارية"، ولم تفلح التجربة في إثبات ذلك لأن الشروط الفيزيائية المحيطة بالتجربة -في نهاية المطاف- كانت تعمل لصالح هذا القانون الذي يبقى إلى يومنا هذا مبدأ راسخًا من المبادئ الأساسية في الفيزياء.

وما تركته تلك "التجربة الذهنية" التي ولدت من أثر دفين وهاجس مقيم في تفاعلات دنيا الفيزياء، وهو تلك الرغبة الجامحة في التحكم في الذرات والجزيئات وترتيبها على النحو الذي يرغب فيه العلماء؛ فالذرة، -كما هو معلوم- هي البنية الأساسية في المواد، والجزيء هو ناتج عن اتحاد مجموعة من الذرات لتكوين مادة جديدة. وبالتالي فإن الذرات والجزيئات هي التي تحدد سلوك المواد وتفاعلاتها وظواهرها، مما يعني أن التحكم في كل ذرة أو جزيء على انفراد، يفتح آفاقًا علمية وتقنية لا تخطر على بال.

لذا لم يكن غريبًا أن يطرح أحد أبرز فيزيائيي القرن العشرين البروفسور "ريتشارد فينمان" في عام ١٩٦٥م تصورًا علميًّا في محاضرة شهيرة بعنوان "هناك متسع كبير في القاع"، حيث تساءل عما يمكن للإنسان أن يفعله

إن "تقنية النانو" تمثل "الجيل الخامس" بالنسبة لعالم الإلكترونيات، وهو الجيل الذي يفتح الآفاق أمام أدوات وأجهزة تصنع على مقياس "النانومتر" لتحدث انقلابًا جذريًّا في الأجهزة والتطبيقات.

في حال السيطرة على الذرة المنفردة، وتحريكها بحرية وسهولة لصناعة مواد وآلات ستكون لها خصائص فريدة، لأن المواد على هذا المستوى الذري تتمتع بخصائص فيزيائية وكيميائية تختلف عن خصائص الأجسام الكبيرة من المادة نفسها، كما أن خصائص الأشياء الصغيرة تتغير مع تغير أحجامها وفقًا لما يعرف بـ"قوانين القياس"، مما سيتيح أمام المهندسين فرصًا غير مسبوقة في تصميم مواد متطورة، لها خصائص متنوعة ومتغيرة مع تغيير حجم المكونات فقط.

إغراءات نانووية

لا تعتمد شركة Nanosys Inc حديثة التأسيس في سيليكون فالي، التي تتزايد قوتها بسرعة في هذا المجال الصناعي الهاجع في الوقت الحاضر، على مثل هذه الرؤى لكي تحول نفسها إلى حقيقة في القريب العاجل. إنها تبني فقط نشاطًا تجاريًّا على الإمكانات قريبة الأمد؛ بأمل تحقيق بعض الأرباح وترسيخ الأساسات لمستقبل ما. غير أن ذلك يعني أن نظرة الشركة ضيقة؛ فالشركة تنشط في مجال تطبيقات متعددة ومتفاوتة من الخلايا الشمسية إلى المجسات والألياف والإلكترونيات المهندسة بالنانو، وهي منصرفة في الوقت نفسه إلى التطور والترخيص لتكنولوجيات نأمل أن تدعمها وتقوي عضلاتها التجارية.

يقول "ستيفن أمبيدوكلس" الشريك ومدير قسم التطوير التجاري في الشركة: "إننا نركز على أشياء بسيطة جدًّا اليوم، أشياء نستطيع أن نعملها خلال السنتين المقبلتين لكي ننزلها إلى السوق حتى تتوفر تقنية النانو للناس بلمح بصر".

والواقع أن هذه المقاربة البراجماتية، قد لا تكون

hiragate.com

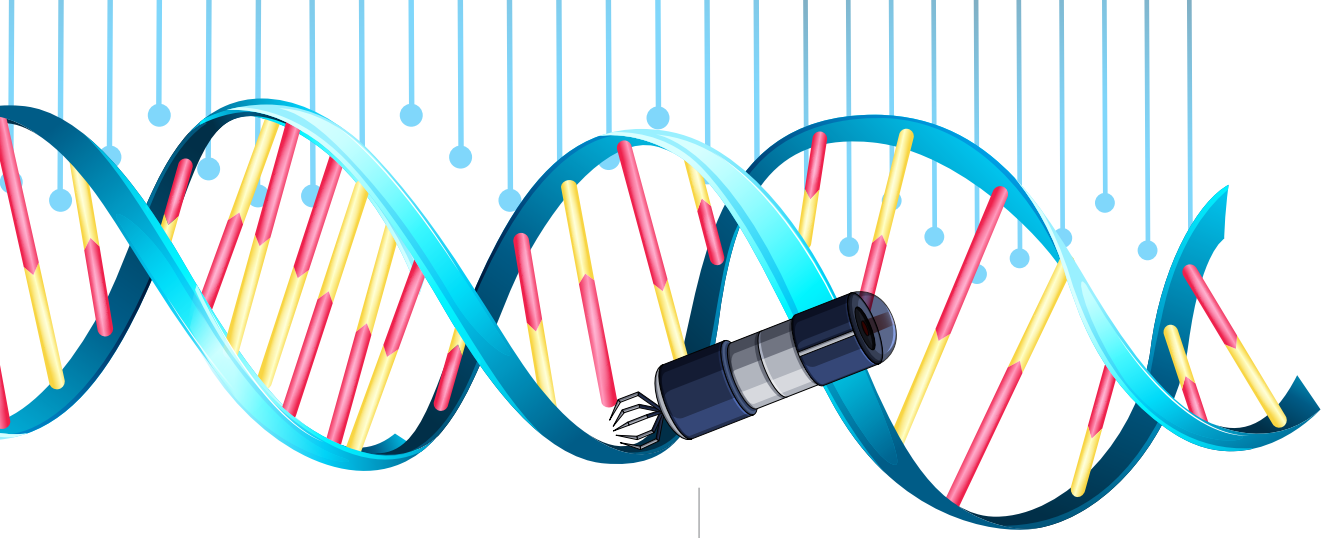

دراماتيكية على غرار ما يجري في الخيال العلمي، ولكنها تجتذب الكثير من الانتباه والاستثمار.

لقد وقع الرئيس الأمريكي على مشروع قانون لإنفاق حوالي ٣,٧ مليار دولار على العمل في ميدان تقنية النانو. كما أن المختبرات التابعة للشركات تستثمر أموالاً كثيرة في هذا المجال في وقت أنشأت الجامعات ما يزيد عن ١٠٠ معهد أبحاث في مختلف أنحاء البلاد.

إن جزئيات من حجم النانو، لها مزايا فريدة تجعلها مغرية بصورة خاصة. فتقنية النانو تستطيع أن تصنع المواد بصورة أسرع وأفضل وأرخص ببناء المواد ذرة فذرة، عن طريق تفاعلات كيميائية في أوان وقوارير لا تزيد قيمتها عن عشر دولارات، بدلاً من المعامل والمصانع التي تكلف مليارات الدولارات، والتي تستخدم فيها صناعة المواد شبه الموصلة.

وهدف شركة نانوسيس، أن تصبح مورِّدة لأجهزة تقنية النانو الأساس تستطيع الشركات التجارية الأخرى تسويقها دونما حاجة إلى معرفة التفاصيل -بنفس الطريقة التي تقوم بها شركات صنع الكومبيوتر بإدماج الميكرو رقيقات التي تصنعها شركة Intel Corp في منتجاتها. لذا أسس ثلاثة رجال أعمال هم "لاري بوك" و"كاليفين تشو" و"أمبيدوكلس" شركة نانوسيس، وقاموا بتوظيف ١٢ من كبار الباحثين ليكونوا مستشاريها العلميين الخاصين، وتستعمل الشركة استثماراتها لترخيص الملكية الفكرية وتطوير ملكية خاصة بها. وحتى الآن تملك حوالي ١٥٠ براءة اختراع تم الحصول على ثلثها بالترخيص من مراكز تقنية النانو في مختلف أنحاء العالم، والباقي طورته بنفسها.

يقول "جون أم أ. روي" خبير السياسة التقنية في شركة ميريل لينتش: "إن تقنية النانو، شركة تساعد نانوسيس على البروز، فالكل يتكلمون عن الملكية الفكرية، ولكن قليلين يركزون فعلاً عليها كعنصر محوري أساسي". ويحرص "أمبيدوكلس" على عدم المبالغة في الحديث عما يمكن عمله في المستقبل القريب، إذ يقول: "فقد تكون الكمبيوترات الخلوية ممكنة الصنع في المستقبل البعيد، ولكن نانوسيس لا تسعى إلى الإحلال مكان إنتل كروب غدًا. إن نظرتنا مختلفة؛ إنها في الأساس تبحث عن فرص الثمار الواطئة على جانبي الدرب". وفي مختبرات نانو سيس، يعمل الباحثون على مواد من حجم النانو تطرد الماء بكفاءة عالية، إلى درجة أن قطرات السائل تنعكس من السطح. وتسجل الشركة أيضًا تقدمًا في مجال الإلكترونيات التي تحتاج إلى فراغات سوبر مسخنة، وغرف نظيفة على غرار ما تحتاج إليه تكنولوجية شبه الموصلات.

والطريقة الفوتوفولتية -أي تقنية تحويل أشعة الشمس إلى كهرباء- تختلف عن الخلايا الشمسية السيليكونية البلورية غالية التكاليف المستعملة حاليًا. ويؤمل أن تصبح الطريقة قابلة للطلي على الأسطح أو مزجها مع مواد بناء، عن طريق هندسة النانو.

إن نانوسيس ليست بصدد محاولة إعادة اختراع العجلة بجوانب مثيرة وغير ثابتة الجدوى مثل الأنابيب الكربونية النانونية التي يروج لها آخرون، وهي تقنية واعدة ستوفر مواد أقوى من الفولاذ وخواص كهربائية ممتازة، إلا أنها غير جاهزة بعدُ للحديث عنها. إلا أن مشكلة الأنابيب الكربونية النانونية، هي أنه لا يمكن

hiragate.com

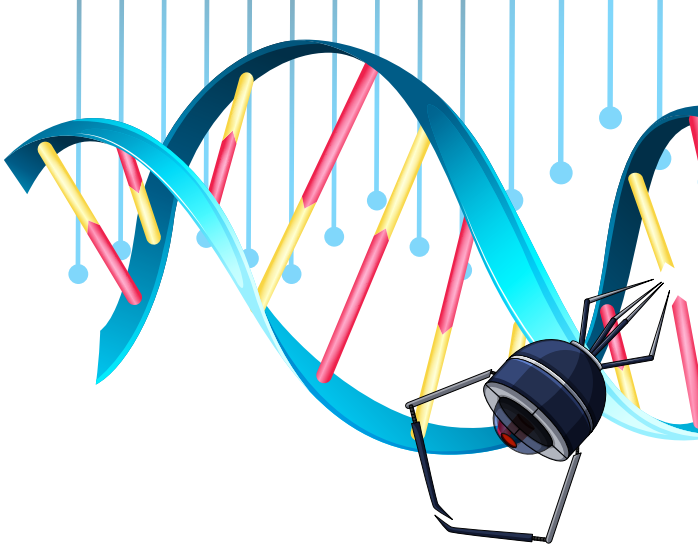

صنعها بطريقة متحكم بها، حيث إن كل عمليات تصنيع الأنابيب الكربونية النانونية تنتج كل أنواع الأنابيب النانونية دفعة واحدة.

لكن رغم وجود فريق الباحثين المرموقين، وامتلاكها لبراءات الاختراع والتطبيقات القابلة للتحقيق في المدى القريب، فإن شركات تقنية النانو بصورة عامة، يتوجب عليها أن تقدم شيئًا يرضي توقعات المستثمرين، وإلا فإنها ستجازف "بتنفيس فقاعة الاهتمام" حسب ستان وليامز، مدير قسم أبحاث العلوم الكمية في شركة هيوليت باكرد، الذى يضيف: "إن شركة نانوسيس تملك المواهب ولديها المال.. لكن العبرة الآن في التنفيذ".

انطلاقات وتخوفات

من تلك المنطلقات الواعدة، يتوقع المراقبون أن تشعل "تقنية النانو" سلسلة من الثورات الصناعية والاكتشاف العلمية خلال العقدين القادمين، ولذا بدأ السباق المحموم في أبحاث وتطبيقات "النانو" على المستوى العالمي. ويُتوقع أن تكون البحوث والتقنيات "النانوية"، أكبر المشروعات العلمية التي ستتولى الولايات المتحدة الأمريكية تمويلها منذ سباق الفضاء في الستينات من القرن الماضى.

إن "تقنية النانو" تمثل "الجيل الخامس" بالنسبة لعالم الإلكترونيات، وهو الجيل الذي يفتح الآفاق أمام أدوات وأجهزة تصنع على مقياس "النانومتر"، لتحدث انقلابًا جذريًّا في الأجهزة والتطبيقات؛ فللحجم اعتباره المهم في عالم الحاسب الآلي والإلكترونيات، ولذا من المتوقع أن يصبح الحاسب الخارق الموجود في مراكز الأبحاث والتطوير أو في الجامعات الكبيرة، مجرد ساعة يد نتزين بها في المستقبل القريب.

وأما المباني والآلات فإنها ستستطيع إرسال إشارات لاسلكية عندما تحتاج إلى صيانة، أو قد تستطيع إصلاح نفسها.. وسنرتدي "ملابس ذكية" تأخذ بيانات عن صحتنا وتنبهنا لعوامل بيئية مضرة، كما أنها ستنظف نفسها من الأوساخ والروائح دون أية مساعدة، وستقوم بتدفئة أو تبريد الجسم حسب درجة الحرارة الخارجية.

في الوقت الذي تفتح فيه "تقنية النانو" آفاقًا جديدة واعدة أمام مستقبل البشرية، فإنها -بطبيعة الحال- تحمل محاذيرها وأخطارها؛ فنجد أن البعض يتخوف من تطبيقات مستقبلية لتقنية النانو في مجال "التجسس" مما يثير هواجس بشأن "الحريات المدنية" للمواطنين.. وهناك مخاوف أخرى في مجال التطبيقات العسكرية.. وتطرح على الساحة أيضًا أسئلة حول "أخلاقيات التطبيق" في مختلف المجالات، مما يضع على المحك هواجس أخرى حول طبيعة المجالات التي ينبغي فيها استخدام "تقنية النانو".

أما أبرز التخوفات، فهي "الاعتبارات البيئية" لتقنية النانو، وآثارها على العاملين في صناعاتها، مما يضيف إلى قائمة متنامية من أنواع التلوث نوعًا جديدًا هو "التلوث النانوي"؛ فالتخوف كبير من انتقال الجسيمات والتركيبات "النانوية" إلى الجسم البشري، حيث إن هناك مؤشرات على أن أحجامها المتناهية الصغر، ستقود إلى تأثيرات ضارة على خلايا الجسم، كما أن بإمكانها اختراق خلايا النبات والحيوان مؤدية إلى آثار غير معروفة. ■

(*) عميدة كلية التربية السابقة بجامعة الأسكندرية / مصر.

المراجع

(١) نشرات صادرة عن شركة Intel Corp بتواريخ متعددة

(٢) نشرات صادرة عن Nanosys Inc بتواريخ متعددة.

(٣) مجلة Small Time Media أعداد مختلفة.

hiragate.com

محمد زغلول عامر*

المدنية الإسلامية
في الميزان الاجتماعي

إن مجرد محاولة البحث في كيفية انتقال العرب من عيشة البداوة التي طبعتهم في عصور الجاهلية إلى عيشة في ظل مدنية مكتملة الأركان كتلك التي باتوا يعيشونها في ظل الإسلام، يستلزم البحث في تلك الأسس التي تنتقل مجموعةٌ بشرية بمقتضاها من طور البداوة إلى طور الحضارة. بما يمكن أن يستدعي ذلك الموروث الخلدوني في كيفيات الانتقال من طور البداوة إلى طور الحضارة والمدنية، وهو ذلك الموروث الذي يعتبر العامل الاقتصادي هو آلية التحول

الرئيسية من طور البداوة إلى طور الحضارة.

ولكن تلك المدنية العربية التي عاشها العرب في ظل الإسلام، تلك المدنية التي قامت على عُمُد متينة من تكامل الحضارة وتكامل العمران، يمكن أن تُعزى إلى آليات أخرى تشكل بجانب الآلية الاقتصادية بواعث حقيقية لتلك المدنية غير المسبوقة في تاريخ البشرية، وهي المدنية التي أنشأت مُدُنًا مستفيضة العمران، رَبا عدد سكانها في تلك العصور القديمة على بضعة ملايين من السكان.

لقد رَبا عدد سكان مدينة "بغداد" المدورة، التي أنشأها "أبو جعفر المنصور" ثاني الخلفاء العباسيين عند ملتقى رافدي "دجلة " و"الفرات" على مليونين ونصف المليون من السكان، وذلك في أثناء القرن الثامن الميلادي. بينما احتوت مدينة "قرطبة" عاصمة أمويي الأندلس في وقت ازدهارها على مليون من الأنفس، وكان حيز عمرانها يزيد على عشرين فرسخًا في عشرين. وأكثر من ذلك أن مدينة "غرناطة" التي كانت عاصمة لدولة بني الأحمر آخر دول المسلمين في الأندلس، كانت تضم وقت سقوطها عام اثنتين وتسعين وأربعمائة وألف للميلاد نصف مليون من السكان، بما كان يجعلها أكبر مدن القارة الأوروبية في ذلك الحين، برغم أنها كانت عاصمة إمارة صغيرة في آخر عصور المسلمين بالأندلس.

إن الحضارة العربية الإسلامية، هي حضارة إنسانية ذات طابع كوني يقوم على استيعاب وتطوير أية فكرة في إطار من التسامح الكامل مع ذلك الذي أسسها، سواء أكان ذلك المؤسس مسلمًا أو غير مسلم.

قواعد راسخة للمدنية الإسلامية

إن محاولة استشفاف تلك القواعد المتينة للمدنية العربية بعد الإسلام، تقتضي البحث في الأصول الأولى لتلك المدنية التي تجسدت في "مكة" و"المدينة"، بل و"الطائف"، وذلك في وقت ما يعرف بـ"الجاهلية الثانية". وهي تلك الفترة التي سبقت بعثة رسول الله ﷺ بما يقارب مائة وخمسين عامًا. وذلك من حيث إن فقر طبيعة الحجاز في تلك الآونة، لم يكن ليسمح بنشوء مدينة متوسطة العمران كـ"مكة"، والتي تحولت منذ عهد "هاشم بن عبد مناف" جد رسول الله ﷺ إلى حاضرة بنيت بيوتها بالآجر والأحجار، وفرشت بالبسط النفيسة التي كانت ترد من "فارس" والشام". وإذا ما حاول أحدٌ أن يعزو تلك المدنية المكية فيما قبل الإسلام، إلى

ازدهار اقتصادي طرأ بفعل رحلتي الشتاء والصيف اللتين ابتدأهما "هاشم بن عبد مناف"، فإن هناك من طبائع المدنية وأخلاقياتها ما طبع هؤلاء المكيّين فيما قبل الإسلام، بما لا يمكن أن يعزى فقط إلى اختلاطهم بأمم الحضارة في "اليمن" و"الشام"، والتي كان أهل "مكة" يشدون الرحال إليهما للتجارة في الشتاء والصيف. وإنما يمكن أن تعزى طبائع تلك المدنية أيضًا، إلى ما يمكن التعبير عنه بـ"ذلك التلاقح الضارب في القدم الذي حدث على أرض الجزيرة العربية بين أمم قديمة عديدة"، حيث إن الجزيرة العربية لم تنفرد بأن تكون موطئ قدم قبيلة "جرهم" العربية القديمة الذين هم أصهار إسماعيل عليه السلام، أو حتى بني يعرب بن قحطان الذين عمروا بدورهم أرض اليمن فيما حول "مأرب" وساحل البحر الأحمر. ولكن هؤلاء العرب المستعربة من بني "إسماعيل بن إبراهيم" عليهما السلام، كانوا تجسيدًا لذلك التلاقح الضارب في القدم الذي تفتقت عنه تلك العربية الفصيحة التي كان إسماعيل عليه السلام أول من نطق بها. كما أن تلك الأخلاق السديدة، من الإقدام والنخوة، والفتوة، والفصاحة، كانت بدورها قواعد راسخة لتلك المدنية الإسلامية التي أوجدت لها رافدًا من الأخلاقيات العربية الأصيلة فيما قبل الإسلام.

فقد كان يقسم للمجاهدين زمن "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه ثلاثين ألف ألف قطعة من الذهب للواحد منهم نصيبًا من الغنيمة، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول عند توزيع الغنائم: "يا بيضاء ويا صفراء غري غيري"، ولم تكن تلك البيضاء والصفراء التي عناها سوى الذهب والفضة التي كانت تقع في أيدي المسلمين غنائم في المعارك التي كانت تدور بينهم وبين أعدائهم في أزمنة الفتوحات. ولم يكن من نهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في اختطاط المدن، سوى التواضع في بناء البيوت التي لم يكن يزيد ارتفاع الواحد منها على قصبتين، وهو ما يعادل ستة أمتار تقريبًا.

وليس معنى ذلك أن الأمر كان مجرد زهدٍ في الدنيا، أو أنه كان مجرد تحقيق لفكرة الكفاية في العيش، بل إن هناك سببًا قويًّا دفع عمر رضي الله عنه إلى اختطاط المدن التي أنشأها المسلمون في عصر الفتوحات على هذا الأساس من التواضع، ولم يكن ذلك السبب سوى ذلك الاحتذاء لسنة الرسول ﷺ، تلك السنة التي تقتضي توطين الغريب ونقله -ولو تدريجيًّا- من حياة الظعن والترحال إلى حياة الاستقرار والإقامة. وليس أدل على ذلك من اعتماد الرسول ﷺ لمبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في سبيل تحقيق المواطنة الكاملة لهؤلاء المهاجرين في إطار المجتمع الجديد الذي أقامه رسول الله ﷺ في مدينته المنورة. فقد شكل المهاجرون ذلك العنصر الوافد الذي كان يتوجب لدمجه في إطار المجتمع الجديد الذي نشأ في أرجاء البلاد المفتوحة إعاشته في إطارٍ من عدم الجور على السكان الأصليين، بمعنى تحقيق مواطنته الكاملة في إطار المجتمع الجديد دونما خلق أي حزازاتٍ بينه وبين صاحب البلد الأصيل. وهو ما سهل -بحد ذاته- دمج العرب الفاتحين في إطار مجتمعات البلاد التي افتتحوها، وساعد على اختلاطهم بأهل البلاد الأصليين الذين تحولوا إلى مسلمين عربًا بمرور الزمن، إذ إن استعرابهم قد تحقق في إطارٍ من تجاوز الطبقية التي أدت بتلك المجتمعات فيما قبل الإسلام إلى حال التحلل والتشاحن وفقدان القدرة على البقاء، في ظل غياب المحددات الأخلاقية التي تحافظ على تماسك المجتمع وتلاحمه.

خصائص المدنية العربية

يمكن تحديد الخصائص الأساسية للمدنية العربية في إطار المحددات البيئية والمناخية التي نشأت فيها تلك المدنية. إذ إنه، وبعيدًا عن اختلاف خصائص الحياة ومقوماتها فيما بين بلاد العرب وبلاد الأندلس مثلاً، فإن السمة الأساسية للمدنية العربية الإسلامية كانت ولا تزال تتلخص في التكيف مع كل العناصر المتاحة في سبيل تحقيق استقرار الحياة وتماسكها. ومن ثم فإن البنية المجتمعية في الحواضر العربية الرئيسية قد قامت

hiragate.com

على تجاهل العوامل الإثنية، وما يتبعها من انعزالية يمكن أن تؤدي إلى تلك الطائفية المقيتة، التي كانت تميز كثيرًا من البلاد التي فتحها المسلمون العرب. وكانت نتيجة ذلك أن جرى تعريب تلك المجتمعات بطريقة طبيعية غير مقصودة أصلاً، كما جرى أيضًا استيعاب تراث تلك الحضارات السابقة التي كانت تعيش في إطارها تلك البلاد المفتوحة في إطار الحضارة العربية الإسلامية، التي صارت أول حضارة إنسانية ذات طابع كوني يقوم على استيعاب وتطوير أية فكرة في إطار من التسامح الكامل مع ذلك الذي أسسها، سواء أكان ذلك المؤسس مسلمًا أو غير مسلم.

محصلة المدنية الإسلامية

نشأت مدنيتنا العربية الإسلامية في إطار جغرافي يمتد ما بين جبال الهيمالايا شرقًا والمحيط الأطلسي غربًا، كما أن القوة العددية للمسلمين العرب القادرين على حمل السلاح، لم تتعد في أوجها تسعمائة ألف مقاتل، وذلك إبان تلك الغزوة التي افتتح فيها الخليفة العباسي "محمد المعتصم بن هارون الرشيد" مدينةَ "عمورية" في آسيا الصغرى في أوائل القرن الثالث الهجري. وبما أن الامتداد الجغرافي للدولة الذي هو نطاق سيطرتها يتبع بالأساس قوتها العددية، فإن العرب المسلمين قد حكموا ذلك النطاق الجغرافي الواقع في أغلبه داخل العروض المعتدلة، التي هي الأقاليم الجغرافية الثالث والرابع والخامس، المائل بدوره للحرارة، الذي تقع "مصر" و"شبه الجزيرة العربية" في إطاره. وقد كانت تلك الأقاليم المناخية منذ القدم مهبط الرسالات، وموطن الحضارات القديمة منها والحديثة. كما أن الاعتدال المناخي لتلك الأقاليم، قد أدى لاعتدال أمزجة أهلها ووفرة ناتجها الزراعي. وأيضًا فإن الصنائع والأبنية المشيدة، والفرش الأنيقة والمآكل المتقنة، لم تعرف منذ القدم سوى لسكان تلك الأقاليم المناخية الثلاث المشهورة باعتدالها. وهي الأقاليم التي قامت على أرجائها دول الإسلام وحضارته العالمية. ولم يكن من شأن تلك الحضارة أن تقوم وسط بيئة اجتماعية تتسم بالطبقية أو الإقطاعية، وإنما في إطار مجتمع يعترف بالحرية في إطارها العام الشامل إطارًا له. فقد كانت حرية المعتقد هي أساس التعاطي بين كل قاطني المجتمعات العربية الإسلامية في مختلف الأقطار، بما جعل من غير المسلمين بارزين في كل مجالات الحياة داخل تلك المجتمعات. فقد كان أبرز أطباء الدول الإسلامية يهودًا، كما أن قاعدة العمل في بيت الحكمة في "بغداد" حاضرة العباسيين -الذي كان أعظم مركز ترجمة في التاريخ- كانت من ترجمة غير مسلمين.

ومن ذلك ، فإن مسألة الربط بين الإسلام كعقيدة من جانب، وتلك الأنماط المعمارية التي نشأت في ظل الإسلام على مر العصور، تعد مسألة سوفسطائية، وذلك من حيث إن حواضر الإسلام الرئيسية في كل من "القاهرة" و"إسطنبول" و"نيودلهي"، لم تكن سوى انعكاس لما تفرزه بيئاتها المحلية من موارد وأنماط ثقافية أصيلة. وذلك من حيث إن ذلك الطراز المملوكي المصري -مثلاً- في بناء المآذن، لم يكن سوى تطوير لصناعة المسلة الفرعونية، التي تقوم على قاعدة مربعة الشكل يتناقص قطر مربعها كلما استطالت. كما أن طرز المساجد التي أنشأها مغول الهند المسلمون المعروفون بـ"المغال" لم تستوح سوى من ذلك الطراز المهيب لبناء المعابد الهندوسية. ولم تكن تلك المباني المحكمة البناء، والمعبرة عن قصارى المدنية، سوى انعكاس لكيفية توظيف العوامل البيئية المحلية الأصيلة في خدمة تلك الروح البناءة التي أوجدها الإسلام في نفوس البشر. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

المراجع

(١) مقدمة ابن خلدون.

(٢) "ابن حزم الأندلسي، وجهود في البحث التاريخي والحضاري، الدكتور عبد الحليم عويس.

(٣) "السيرة النبوية لابن هشام.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

الميزان
وأثره على حياة الكائنات

هل بسطت ميزان فكرك، وفتحت نوافذ عقلك، وتداعت خلجات قلبك، لتقف على مظاهر النسق الكوني المتوازن من أبسط ذراته (إليكترون يدور حول بروتون)، لأثقل ذراته المعروفة؟ قوة جذب متوازنة تربط الإلكترونات "سالبة الشحنة" مع نواتها التي تتكون من نيترونات "متعادلة الشحنة"، وبروتون "موجبة الشحنة" توازن شحنة الإلكترون. وتدور الأرض حول نفسها، ولا نشعر بها لثقل كتلة الجبال، حيث يظهر ثلث "الأوتاد" عيانًا، أما الباقي فمغروس لتثبت قشرة الأرض، وليعتدل رمانة ميزانها. وهناك

ميزان منضبط للتجاذب بين الأرض والكواكب الأخرى ونجمهم الشمس، فلو اقتربت الأرض نحو الشمس لاحترقت، ولو ابتعدت قليلاً لتجمدت. والمغناطيسية الأرضية وتأيُّن الفضاء في ميزان قويم حسب أطوار القمر. وتنخفض الفعالية الجيومغناطيسية عندما تصطف كواكب مجموعتنا الشمسية على خط مستقيم بين الشمس والأرض، ليشكل كوكب "الزهرة" حاجزًا في وجه الرياح الشمسية. ويخضع الحقل المغناطيسي للأرض لتغيرات متوازنة ساعة بعد أخرى مردها اليوم والشهر القمري.. مما يضبط الضوء والإبصار، وحظنا من طاقة الشمس، وانتظام الظواهر المناخية، وفترات المطر، وتدفق الأنهار، ونشاط النباتات، وسلوك الحيوانات، وحياة البشر.

ميزان الهواء والنبات

يتركب الهواء من ٧٨,٠٨٪ من غاز النيتروجين الخامل كيميائيًا (على شكل N_2؛ أي ذرتا نيتروجين مرتبطتان برابطة قوية)، والنيتروجين المستنشق يمرُّ في مجرى الدم دون استخدامه من خلايا الجسم، بيد أنه موجود في "الحمض النووي الريبوزي"، و"الحمض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين"، وفي البروتينات. أما الأكسجين فنسبته ٢٠,٩٪ وهو ضروري لتنفس المخلوقات، ولو زادت نسبته لاشتعلت الحرائق. كما يحتوي الهواء على ٠,٩٣٤٪ من غاز الأرجون (مستقر ونادر في تفاعله مع مركبات أخرى)، و٠,٠٣٪ ثاني أكسيد الكربون، وغيرها من غازات نادرة النسبة. وتحافظ الجاذبية على بقاء طبقة الغلاف الجوي للأرض في مكانها، مما يمنعها من الفرار إلى الفضاء، كي تمثل حاجزًا يمنع كميات كبيرة من أشعة الشمس من الوصول إليها وحرق كل شيء. وبميزان دقيق كاف لحياة البشر والنبات، يصل كميات محدودة من الأشعة "الضارة"، كالأشعة السينية، وفوق البنفسجية. إذ تعمل الأخيرة على تطهير الجو، والملابس، والمفروشات، من الميكروبات وقشور الجلد وغيرها.

ولا يوجد نمو لورقة من نبات أو غصن ما لم يكن ضمن "منظومة" من التوازن والتناسق والتناسب، ولذلك ترى شكل أغلب النباتات منتظمًا متماثلاً لو أخذت فيه

لا يجري النبات تفاعلاً كيماويًّا واحدًا إلا إذا كان بحاجة إليه، ولا تصنع الأوراق جزيئًا واحدًا من المواد الكربوهيدارتية إلا بقدر الحاجة إليه، كما يمكن لكثير من الأشجار أن تعلب دورًا هامًّا في التوازن البيئي نظرًا لخاصيتها الكبيرة في النمو في الظروف المناخية القاسية.

مقاطع هندسية متعددة. ويتوازن قطر الساق (وطوله ودرجة تخشبه) مع ما يحمله من أغصان وثمار. أما حوامل الثمار وقشرتها ودرجة تصلبها، فتتوازن مع طبيعة مكوناتها غضة أو صلبة أو ما بينهما. كما أن هناك توازنًا بين أداء أعضاء النبات كافة؛ فالجذر لا يمتص من التربة عنصرًا واحدًا ولو بكمية متناهية في الضآلة، إلا لحاجة النبات له. كما لا يجري النبات تفاعلاً كيماويًّا واحدًا إلا إذا كان بحاجة إليه، ولا تصنع الأوراق جزيئًا واحدًا من المواد الكربوهيدارتية إلا بقدر الحاجة إليه. كما يمكن لكثير من الأشجار أن تلعب دورًا مهمًّا في "التوازن البيئي" نظرًا لخاصيتها الكبيرة في النمو في الظروف المناخية القاسية وفي تربة ذات ملوحة عالية نسبيًّا. فالنخلة -على سبيل التمثيل- تعتبر "رئة العالم" ومن أكبر الأشجار حجمًا، حيث اقتناص كمية كبيرة من غاز ثاني أكسيد الكربون، وإطلاق غاز الأوكسجين، مما يجعل لها دورًا في حل مشاكل الاحتباس الحراري وتغيرات المناخ.

ميزان نسل الكائنات الحية

من تراب، ثم "زوجية تكاملية توازنية" في النبات والحيوان والطير والإنسان لإحداث تنوع هائل في أشكال الحياة.. وأودعت -بخاصة في البشر- غرائز ودوافع و"متع" كمكافآت مسبقة لتحمل أعباء العناية بالنسل، فلو حلَّ محلَّ "المتعة" شيءٌ مؤلم، أو طلب الإنسان المتعة لذاتها "دون تبعاتها"، لما تحقق استمرار النسل قط. إن من وضع قانون استمرار النسل، هو عينه من "وازنه" بوضع "الحوافز" المسبقة، ثم خلق عشرات الملايين من الكائنات الحية بمختلف الأشكال

hiragate.com

والأحجام، وبأعداد يصعب حصرها لكل نوع، ثم تأمين الغذاء لهذه الكائنات الحية لتبقى أعدادها في توازن تام لملايين السنين. وانظر للكائنات الحية، فهي في تزايد مستمر عدديًّا، ويكون التوازن بميزان الموت والنفوق. ولولا البكتيريا، والفطريات، والطحالب، والخمائر، والأعشاب، والهائمات النباتية، والنباتات الراقية، والجوفمعويات، والرخويات، والأسماك، وخراف، وأبقار البحر، والحشرات، وسباع الطير، والثعابين، والسحالي، والفئران، والقطط، والكلاب.. لأصبحت الحياة -تربة وماء وهواء- غير ممكنة، ولما استمرت في نقاء. إنهم يُنظفون البيئة تنظيفًا طبيعيًّا، ويحللون الأبدان البشرية، والحيوانات والطيور الضعيفة والمريضة والنافقة، والمخلفات الحيوانية، والنباتات الميتة، والقمامة، والمواد الهيدروكربونية في الماء والبقع النفطية، كما يُصلحون ما تفسده أيدي بعض البشر.

توازن السلسلة الغذائية

ما يقرب عن مليوني نوع معروف من الكائنات الحية المبثوثة فوق كل موضع قدم على سطح البسيطة، ولها نصيبها المُقدر "بخاصة الغذاء والماء"، ميزانهم دقيق، وتصميمهم بديع.. أمم وممالك، أجناس وأفراد، أنواع وأشكال، وأحجام وتأقلم ليتخذ بعضها بعضًا طعامًا وغذاءً؛ ولولا هذا التأقلم المتوازن بين تصميم أجسامها لتناسب البيئات المختلفة، وتكتسب أقواتها لانحصر عيشها في مناطق محددة، وتقتات معظم الكائنات الحية غذائها قوتها يوميًّا، ولا تحمل هم رزقها في اليوم التالي. وتصف "السلسلة الغذائية" مسار انتقال الطاقة مصدرها الأساس هو الشمس، في شكل غذاء، من كائن لآخر. فعلى سبيل المثال، هناك "المنتجون" كالنباتات، والطحالب، والعوالق النباتية، وبعض أنواع البكتيريا القادرة على إنتاج طعامهم للحصول على طاقتهم بأنفسهم، ومعظم المنتجين يستخدمون طاقة الشمس "في عملية التمثيل الضوئي"؛ لإنشاء طاقة ومواد مغذية.

ثم يأتي "المستهلكون" الذين يأكلون المنتجين وهم ثلاثة: حيوانات عاشبة (الغزلان، والأرانب، والخيول، والأبقار، والأغنام، وبعض الحشرات) مستهلك رئيس يأكل النباتات فقط. والنوع الثاني: آكلات اللحوم التي تأكل الحيوانات فقط، كالقطط، والصقور، وأسماك القرش، والبوم، والعناكب. أما النوع الثالث: الحيوانات "القارتة" التي تجمع بين أكل الحيوانات والنباتات، مثل الدببة، والبشر، والراكون، ومعظم الرئيسيات، والعديد من الطيور. وتنتهي السلسلة الغذائية عند "المفترسين" في القمة، كالأسود، وأسماك القرش البيضاء، والصقور، والوشق الأحمر. وينتهي توازن السلسلة الغذائية بالمحللات -في التربة والماء، وسبق الإشارة إليها- التي تأكل المواد المتحللة من النباتات والحيوانات الميتة، وتحولها إلى تربة غنية بالمغذيات التي تستخدمها النباتات لإنتاج غذائها؛ لتبدأ سلسلة غذائية جديدة. وبالطبع يمكن أن يكون كل كائن حي جزءًا من سلاسل طعام متعددة. وجميع السلاسل الغذائية المترابطة والمتداخلة في النظام البيئي، هي "شبكات" متوازنة بدقة بالغة.

موازين في جسم الإنسان والحيوان والطير

إنها موازين كثيرة متنوعة نشير سريعًا لأمثلة لها. يوجد نحو ١٠٠ تريليون خلية في جسم الإنسان، هل شعرت بوظائفها الأساسية التي تتآزر مع بعضها البعض؟ كما تشكِّل كلُّ مجموعة متجانسة ومتوازنة من الخلايا، نسيجًا يكوِّن أعضاء متناسقة، ثم أجهزة كاملة متميزة تعمل بموازين دقيقة لتحافظ على عافية الأبدان. وإذا اشتكي منها عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر. ومن مظاهر هذا التوازن إفراز الجسم "للسيتوكينات والانترلوكينات والانترفيرونات"، لتقاوم الجراثيم أو سمومها التي تغزو الجسم. ويتأكد هذا التوازن حين تتأمل أداء أجهزتك وعلاقتها بدماغك، فسيعتريك شعور مدهش من جمال التناسق والتكامل فيما بينها. فإذا واجهت موقفًا عصيبًا يرتفع هرمون الأدرينالين (الهرمونات رسائل كيميائية توازنية دقيقة)، ليزيد من معدل ضربات القلب وضغط الدم، وإنتاج الجليكوجين في الكبد، وإمدادات الطاقة، مما يساعدك على الهجوم أو الهروب من ذلك الموقف الخطير. ويتم إنتاجه في الغدة الكظرية بعد إرسال أدمغتنا رسالة مفادها أننا نواجه وضعًا متوترًا. وعندما يتراجع الخطر،

hiragate.com

hiragate.com

ترسل إشارات مهدئة لا تستجيب للإجهاد.

وجينيًّا ووراثيًّا، يشرف الحمض ريبي منقوص الأكسجين (دنا DNA) على تكوين الحمض ريبي النووي (رنا RNA)، ثم بعث رسائل لتكوين البروتينات النوعية، والإنزيمات الخلوية. يوجد نحو مائة وأربعين ألف جين توسع سعة ميزان تكوين عدد كبير من البروتينات والإنزيمات الخلوية المتناسقة، التي تهيمن على التفاعلات الكيميائية الخلوية وتحفز استقلاب السكريات والدهون والبروتينات. وعندما يزداد تركيز غاز ثاني أكسيد الكربون في السائل خارج الخلوي، يتم معادلة ذلك بزيادة التهوية الرئوية، مما يؤدي لخفض تركيزه وإعادة ميزانه لنسبته الطبيعية. وبالمقابل يؤدي انخفاضه لحدوث "إشارات راجعة" تزيد من تركيزه ليبقى ميزانه معتدلاً.

وهل وقفت على معدل زيادة خلايا الدم الحمراء، وخضاب الدم عند سكان الجبال المرتفعة توافقًا مع العيش في بيئة منخفضة الضغط الجزئي قليلة الأكسجين؟ بينما يؤدي العيش في بيئة باردة إلى فرط نشاط الغدة الدرقية بهدف زيادة معدل الاستقلاب وزيادة توليد الحرارة لتدفئة البدن. ويعمل هرمون الثيروكسين من الغدة الدرقية، على سرعة التفاعلات الاستقلابية الخلوية، يؤثر تركيز الكالسيوم في مصل الدم، في ظهور هرمون الغدّة المجاورة للدرقيّة. وهل استوقفك اختلاف لون الجلد في البيئة الباردة وفي البيئة الحارة، وكذلك تغيُّرات طول الإنسان كملامح من التوازن الجسدي؟

ولاحظ عندما يرتفع ضغط الدم الشرياني، يحدث تحريض مستقبلات الضغط التي تحفز خفضه، بينما يسبب هبوطه حث سلسلة استجابات تؤدي لارتفاعه عبر زيادة نتاج القلب والمقاومة الوعائية المحيطية، وتحريض مركز العطش، وإفراز الهرمون المضاد للإبالة (للإدرار). ويتوافق ضغط الدم الشرياني ومستويات سكر الدم مع مواقف اليوم المجهدة، وذلك بقيادة هرمون الكورتيزول الذي يزداد صباحًا (بين ٦-٨ صباحًا)، وينخفض مساءً. ويؤثر تركيز الجلوكوز في مصل الدم، في إنتاج الأنسولين لتوفير الطاقة اللازمة، فيسهِّل دخول الغلوكوز واستقلابه في الخلايا. وتزامنًا مع نواتج المعدة وإفرازات البنكرياس الخارجية؛ تُفرِز الأمعاء الدقيقة هرمونات لتحفيز أو تثبيط المعدة والبنكرياس توازنًا مع مدى نشاطها. وإجمالاً، إن من خلق كل ما نراه ونسمعه ونتذوقها ونلمسه ونتخيله، هو نفسه مَن وهبنا "ميزانها": حاسة البصر والسمع والتذوق والإحساس والوجدان. وإن "الرحمن الرحيم" الذي خلق الكائنات المحتاجة إلى "الرحمة"، هو نفسه من وهب الإنسان مشاعر الرحمة والشفقة.

إن كل هذه الأمثلة السابقة من توازنات في جسم الإنسان، لها نظائرها المتعددة والمتنوعة في باقي المخلوقات؛ فمثلاً هل كان للطير أن تكتسي ثوبًا أكثر توازنًا مع طيرانها من الريش؟ ولو تتبعت شكل أجنحتها ومساحتها، وعظامها الخفيفة الجوفاء بالغة القوة والمرونة معًا، وتناسب ثقل أجسامها، وشدة عضلاتها الصدرية، وتكوين رئتيها الأسفنجية، وشعبها وأكياسها الهوائية المتصلة بها لكفاءة تبادل الغازات وتخفيف وزن الطائر، لوجدت ميزانًا من ذهب يزن بدقة كل تكوينات وخصائص الطير العجيبة.

دلالات ميزان المخلوقات

ذرات الكون ومجراته، سماؤه وأرضه، هواؤه وماؤه، آفاقه وأنفسه، كائناته الحية وجماداته، في توازن عجيب، وتناسب دقيق، وميزان مُتقن.. وإن الإنسان سائح، والكون معرض للمشاهد الملونة، ومكتبة زاخرة مطروحة لنظَره وتأمّله وسياحته. وهذا السائح أُرسل إلى هذا العالم لكي يقرأ هذه الكتب، ويزيد في معرفته. هذه السياحة الممتعة لا تتيسر للإنسان إلا مرة واحدة. وهي الوحيدة التي تكفي صاحب العقل الرشيد، والقلب اليقظان لإنشاء جنَّات كجنَّات عدن، وكجنَّات "إرَم ذات العماد". أما الذين يعيشون مغمضي العيون، فلا تكون سوى لحظة عابرة تأتي ثم تمضي سريعًا"[1]. ■

(*) باحث وأكاديمي مصري.

الهوامش

(1) الموازين أو أضواء على الطريق، محمد فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٦، ص:٣٥.

hiragate.com

د. خالد صلاح حنفي محمود*

النرجسية
داء العصر الرقمي

يشير عدد من الدراسات إلى أن مستويات النرجسية -التي أدرجتها جمعية الطب النفسي الأمريكية بديلاً لجنون العَظَمة في عام ١٩٦٨- قد تزايدت في الأجيال الجديدة، ولا سيما جيل الألفية الحالية، مقارنة بالأجيال القديمة كجيلَي السبعينيات والثمانينيات، وأن ثمة علاقة إيجابية وثيقة بين ارتفاع مستوى النرجسية واستخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وخصوصًا "فيسبوك" و"تويتر" و"إنستغرام"، التي باتت منصات للترويج للذات والاستعراض وسلوكيات جذب الانتباه؛ طلبًا للذة ناتجة عن التفاخر، والإعجاب الشديد بالذات، والخصال المميزة.

وهناك دراسة "ساديا مالك" و"ماين خان" (٢٠١٤م)، التي توصلت إلى أن الفيس بوك يعمل على إبراز النرجسية وتعزيزها، من خلال الخدمات التي يقدمها للفرد، لتجعله

محط أنظار الجميع، وتشبع حاجاته الاستعراضية، وأن الإفراط في استخدام الموقع لدرجة الإدمان عليه، يزيد من مستوى نرجسية الفرد. كما جاء في دراسة "كاربنتر" (Carpenter) ٢٠١١م أن الأشخاص الذين تحصلوا على درجات مرتفعة في مقياس النرجسية، هم أكثر رغبة في استعراض أنفسهم والبحث عن الاهتمام من خلال إضافة عدد كبير من الأصدقاء الغرباء وإدراج صورهم، ويركزون على تحديثات الحالة والاطلاع على كل تعليق أو إعجاب فيما يخص مشاركاتهم.. كما أنهم أكثر عدوانية اتجاه التعليقات السلبية، ويشعرون بقلق عندما لا يحصلون على الاستحقاق والثناء والإعجاب من طرف الآخرين، فهم يرون أنفسهم يستحقون السند والدعم الاجتماعي من طرف أصدقائهم دون تقديمه لهم.

النرجسية كاضطراب في الشخصية

توصف النرجسية (Narcissism) بأنها حب النفس أو الأنانية، وهو اضطراب في الشخصية حيث تتميز بالغرور، والتعالي، والشعور بالأهمية ومحاولة الكسب ولو على حساب الآخرين. الأمر الذي لا بد أن يذكّرنا بالأسطورة اليونانية، حيث يقع نرسيس أو نرجس في حب صورته المنعكس على سطح ماء البركة، فينشغل بها وينعزل عما حوله. وقد جسد عالم النفس المشهور Freud هذه القصة واستعرضها في كتابه الذي نشر عام ١٩١٤م بعنوان "Introduction on Narcissism" والذي يعد نقطة تحول في التحليل النفسي، وتأكيده أن الإنسان النرجسي يتميز بالغيرة من الآخرين والعجرفة عليهم.

وتشمل النرجسية مجموعة من الصفات الشخصية التي ربما يكون لدى أيٍّ منّا بعض منها، ولكن في الحالات الأكثر تطرفًا، يتم تشخيصها في خانة الصحة العقلية بأنها "اضطراب الشخصية النرجسية".

١- السطحية في تناول الأمور.

٢- محاولة استغلال نقاط الضعف.

٣- حرص دائم على تجميل صورة الذات بشتى الطرق.

٤- الشعور بأهمية الإنجازات والمواهب التي يمتلكها إلى حد الاعتقاد بأنه فريد من نوعه.

٥- الشعور بالاستحقاق، أي توقعات غير معقولة من معاملة خاصة.

النرجسية هي حب النفس أو الأنانية، وهو اضطراب في الشخصية حيث تتميز بالغرور، والتعالي، والشعور بالأهمية ومحاولة الكسب ولو على حساب الآخرين.

٦- حب استغلال الآخرين والاستفادة منهم لتحقيق أهداف خاصة.

٧- الافتقار إلى التعاطف مع الآخرين وإنكار احتياجاتهم والغيرة من نجاحات الآخرين.

ووفقًا لهذه السمات، تصبح الشخصية النرجسية شخصية معقدة نفسيًا وسلوكيًا، ولهذا يشار إلى أنها من أكثر "الشخصيات التي يصعب إرضاؤها أو التعامل معها حتى ولو من خلال الخضوع لها ولطلباتها". لذا ينصح علماء النفس الاجتماعي بتجاهلها وعدم الخضوع لها، أو لمطالبها الزائدة عن الحد التي تثير "فيها حبها لذاتها، فلتتعلم هذه الشخصية العطاء قدر الأخذ".

كما يصاحب الشخصية شعور غير عادي بالعظمة، يسيطر على صاحبها حب الذات وأهميتها، وأنه شخص نادر الوجود، أو أنه من نوع خاص فريد لا يمكن أن يفهمه إلا خاصة الناس. ينتظر من الآخرين احترامًا من نوع خاص لشخصه وأفكاره، وهو استغلالي ابتزازي وصولي، يستفيد من مزايا الآخرين وظروفهم في تحقيق مصالحه الشخصية.. وهو غيور، متمركز حول ذاته، يستميت من أجل الحصول على المناصب لا لتحقيق ذاته وإنما لتحقيق أهدافه الشخصية. ويميل النرجسيون نحو إعطاء قيمة عالية لأفعالهم وأفضالهم، والبحث عن المثالية في آبائهم أو بدائل آبائهم من حيث المركز والعطاء.

تظهر النرجسية أكثر، في مرحلتي الطفولة المبكرة والمراهقة؛ فالطفل في بداية حياته يركز على ذاته ومن ثم يعتمد على الآخرين، وهذا ما يعمل على ثبات النرجسية السوية. ومن ثم نجدها في مرحلة المراهقة كميزة طبيعية نتيجة التغيرات المهمة، خاصة التي تتعلق بصورة جسم المراهق وتكوين هويته ومفهوم ذاته، لذلك يحتاج المراهق إلى درجة من النرجسية، من أجل زيادة ثقته بنفسه، وتقديرها بشكل إيجابي. وفي هذه الحالة

hiragate.com

تعتبر نرجسية صحية، وخاصية مميزة من خصائص المرحلة، إلا أن هذه السمة قد تنحرف لتصبح اضطرابًا في الشخصية تتميز بتعظيم الذات والتركيز عليها فقط، بمعنى المبالغة في حب الذات وإنجازاتها.

فهناك خيط رفيع بين النرجسية وحب الذات المرضي، والثقة بالذات التي تعطي الإنسان التوازن الذي يحتاجه في الحياة دون التأثير سلبًا على علاقاته الإنسانية. فالشخصية النرجسية في الغالب، هي شخصية ينمو فيها حب الذات بشكل كبير، ليتحول إلى نوع من الإدمان. كما أن النرجسي هو من يبالغ في تقييم أفعاله مهما كانت بسيطة. ولا تجيد هذه الشخصية -عادة- بناء علاقات إنسانية سليمة، فكل ما يحتاجه صاحب هذه الشخصية ممن حوله، هو تعزيزهم لشعوره بالتميز والنجاح والجمال.

أنواع النرجسية

١- نرجسية المهمة: حيث يأتي إعجاب النرجسي بذاته من قدرات فكرية أو مهارات مميزة يمتلكها أو إنجازات متفوقة، فيتوقع جذب متابعيه نتيجة لذلك.

٢- نرجسية اجتماعية: حيث يُعجب النرجسي بنفسه من خفّة ظله وقدرته على سرد الحكايات المسلية، وعادة ما يهتم هذا النوع من النرجسيين بعرض الصور والتفاخر بجوانب سطحية في الحياة.

٣- نرجسية الجسد: حيث يعجب النرجسي بمظهره ويهتم بالجمال بصورة متطرفة كمشاهير هوليوود، وربما يجري البعض من فئة النرجسيين هذه، عمليات تجميل بمئات الآلاف من الدولارات لينالوا مزيدًا من الرضا والإعجاب.

ويحرص النرجسيون على إبراز الوجه الجميل والمثالي لحياتهم، بعرض صور وتفاصيل تبيّن -على سبيل المثال- نظامًا غذائيًا صحيًا، وممارسة يومية للرياضة، وصورًا أخرى للاحتفال بمناسبات اجتماعية، تساهم في إبراز علاقات متينة ومتميزة مع أفراد الأسرة والأصدقاء والمقربين.

ويعرف النرجسي جيدًا أنه لكي يصبح مشهورًا وجذابًا، لا بد من تجميع أكبر قدر من الأصدقاء والمعجبين، حتى لو كانوا غرباء وسطحيين. ولتحقيق مثل هذا الهدف، فإنهم ينفقون الكثير من الوقت على تعديل صورهم وإعدادها قبل نشرها.

النرجسية في عصر التواصل الاجتماعي

وفقاً لدراسات أُجريت عبر عقود، تصل النرجسية إلى الذروة في السنوات المبكرة من البلوغ، حيث يظهر التمركز حول الذات كمَلمح واضح لهذه المرحلة العمرية. كما تسجل العشرينيات من العمر درجات عالية من النرجسية، ولهذا يستخدم الشباب وسائل التواصل الاجتماعي بصورة أكبر، بوصفها مصادر لتعزيز الميول النرجسية. وفي الوقت الذي يفضل النرجسيون الصغار "تويتر"، يفضّل النرجسيون الكبار "فيسبوك".

وكشف تحليل لعشرات الدراسات التي تناولت علاقة تقدير الذات والشعور بالوحدة باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وعلاقة ذلك بالنرجسية بين مختلف الأجيال، أن أصحاب تقدير الذات المنخفض، والشاعرين بالوحدة بصورة أعمق، يستخدمون وسائل التواصل هذه بشكل أكبر، سواء في شرق العالم أو غربه. وإن كانت هناك بعض الفروق وفقًا للثقافة الجمعية والفردية، حيث يختلف النرجسيون الأمريكيون عن النرجسيين الآسيويين، كمثال، في طبيعة الموضوعات التي يطرحونها وعدد الأصدقاء والمتابعين. كما يتفوق النرجسيون الألمان على النرجسيين الروس بتسجيل قدر أكبر من الإعجاب.

وبيّنت دراسة أجريت في جامعة إيلون الأمريكية، موافقة غالبية من استطلَعت آراءهم على أن أخذ صور الـ"سيلفي" ونشرها على منصات شبكات التواصل الاجتماعي، تؤدي إلى تعزيز السلوكيات النرجسية والأنانية.

أما أهم دواعي نشر الصور، فهي أن الـ"سيلفي" يسمح لجمهورهم بمعرفة حياتهم الاجتماعية "الرائعة"، وتلقّي أكبر قدر من الإعجاب والتعليقات على الصور، أو الرغبة أن يراهم الناس "رائعين" كما يبدون في الصور.

وهناك من رأى أن الداعي إلى ذلك إثارة غيرة بعض الأصدقاء القدامى، بينما اعتقدت مجموعة أن الناس يهتمون بهم وبما يفعلون. وخلُصت الدراسة إلى أن جيل الألفية الجديدة يستخدم وسائل التواصل الاجتماعي، لا لخلق علاقات شخصية والحفاظ عليها فحسب، بل لتقديم أنفسهم على نحو مثالي. وأن كثيرين من هذا الجيل يشعرون بالحاجة إلى تقديم أنفسهم بطرق جذّابة ولافتة لانتباه الأنداد على وجه الخصوص.

hiragate.com

مميزات وعيوب

أما ما يميّز هؤلاء النرجسيين، فهو تمتّعهم بسمات شخصية إيجابية، كالقدرة على القيادة والحشد والإيجابية، وصياغة جمل وشعارات بصورة لافتة للانتباه. ولأنهم لا يحتملون تجاهل الآخرين لهم، تكون حاجتهم إلى المشاركة في الأنشطة كبيرة. كما تسمح وسائل التواصل الاجتماعي للوحيد منهم بالمشاركة في شبكات ومنتديات وأنشطة واسعة المدى. ويسمح "يوتيوب" بتصوير أنفسهم وعرض ما يصوّرونه ويسجلونه من فيديوهات وإعلانات في العالم الافتراضي.

وعلى الجانب السلبي، توجد سمة الاستغلال، وشعور النرجسي باستحقاق الاحترام والاستعداد للتلاعب والاستيلاء على جهد الآخرين لكسب الأضواء بأنانية. فلا يسمح النرجسي -في الغالب- لمشاعر الآخرين وحاجاتهم بإعاقة تحقيقه أهدافه، مما يفسد علاقاته بالمقربين منه.

ومن سمات النرجسي أيضًا، الاستجابة بعدوانية ردًّا على أيّ تعليق يزدريه. ويغلب على كلماته الغضب والمشاعر السلبية مقارنة بالتفاعل الاجتماعي.

ويوجد نرجسي خفيّ، يعبّر عن نفسه بصورة سلبية وغير مباشرة، ويكون مستعدًا للتنازل. ويفتقد مثل هذا النرجسي الشعور بالأمان، ويتصف بالعدوانية السلبية والدفاعية والإيذاء. ويكون قابلاً للجرح ومنطويًا على نفسه.

علاج النرجسية

أثبتت بعض الدراسات وجود دليل على أن الإفراط في تقدير الأطفال ومدحهم من جانب الوالدين وبقية أفراد الأسرة، وغياب العلاقات الدافئة، من أسباب الإصابة بالنرجسية لدى الصغار. فوفقًا لنظرية التعلّم الاجتماعي، غالبًا ما يكبر الصغار نرجسيين مع شعورهم بالتفوق على الآخرين إذا بالغ الآباء والأمهات في اعتبارهم متميزين عن غيرهم من الأطفال.

وتحمل نظرية التحليل النفسي تفسيرًا يرى أن قصور الدفء الوالديّ يمكن أن يحوّل الأطفال إلى نرجسيين يسعون على الدوام وراء استقطاب تقدير من الآخرين لم ينالوا مثله من أسرهم.

ولهذا استحدثت تدريبات لمقدمي الرعاية للصغار المصابين بالنرجسية، كتدخّل علاجي يمنع تطوّر الحالات، وذلك عبر جلسات يستطلع خلالها المعالج خبرات الطفولة الماضية، ويصحح طرق التعامل والعلاقات بين الأطفال وذويهم.

لكن رغم اعتبار تدخّل التدريب الوالديّ فعالاً لعلاج تطور النرجسية في العمر المبكر، فإن هناك دراسات أشارت إلى صعوبة علاج النرجسية بعد أن تتطور؛ وذلك لأن النرجسيين عادة ما يقاومون التغيير، ويعتبرون أيّ ملاحظة توجه إليهم من جانب الآخرين نقدًا لاذعًا، ولكن ثمة دليلاً وجد على إمكان تغيرهم في نهاية المطاف.

ومن الناحية النظرية، يمكن تغيير النرجسيين بإكسابهم سمات كالرعاية والدفء، وغرس المبادئ الأخلاقية وتعزيزها في شخصياتهم. ففي دراسة أجريت على أزواج، ذكر بعضهم أن شعورهم بمزيد من الرعاية والدفء من جانب شركائهم، ساعدهم على أن يصبحوا أفضل، وأقلّ نرجسية مع الوقت.

وما يحمل أمل الشفاء، تطورات على صعيد العلاج الإكلينيكي للنرجسية، كالعلاج النفسي المتعلق بتنظيم الذات، والتحكم فيها، كمدخل علاجي يساعد على إعادة تقييم النرجسيين لسلوكياتهم في ضوء أهدافهم الشخصية. فإذا أنفقت فتاة وقتًا طويلاً على نشر صورها على "فيسبوك" لكسب الإعجاب وجذب تعليقات الأنداد -مثلاً- يطلب منها المعالج التفكير في سلبيات هذا السلوك، واقتراح طرق بديلة لبلوغ الأهداف نفسها، كالحصول على درجات مرتفعة في المدرسة. ولا تزال الجهود تُبذل لوضع مزيد من الإستراتيجيات الجديدة للتقليل من آثار النرجسية. ■

(*) كلية التربية، جامعة الإسكندرية / مصر.

المراجع

(١) أمينة التيتون (٢٠٢٠): منصات التواصل الاجتماعي والنرجسية، مجلة العربي، العدد ٧٣٨، ص:١٦٤.

(٢) دويتش فيلا D.W (٢٠٢١): كيف نتعامل مع أصحاب الشخصية النرجسية؟ https://www.dw.com

(٣) Christopher J.Carpenter (2012): Narcissism on Facebook: Self-promotional and anti-social behavior, Personality and Individual Differences, Vol52.

hiragate.com

سليمان أحمد شيخ سليمان*

المسؤولية الواعية في التربية

لما أحسّ سيدنا رسول الله ﷺ بدنوّ أجله قال للصحابة الكرام رضي الله عنهم يومًا: "إن عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتيَهُ من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده"، فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله (رواه البخاري). وفي حجّة الوداع سأل النبي ﷺ الصحابةَ رضوان الله عليهم قائلاً: "أنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟" (رواه مسلم).

رغم أنه قام ﷺ بمهمة جليلة، وأدى رسالة عظيمة، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما

تأخر، إلا أنه مع ذلك كان يساوره القلق؛ هل أداها بحقها أم لا؟

إحساسه بالمسؤولية تجاه أمته يدفعه ويحركه.. حتى إنه سألهم وأراد أن يطمئن "فما أنتم قائلون؟".

وعندئذ صاحت كل القلوب المؤمنة معترفة بفضله؛ حتى ترددت أصداؤها في كل جنبات ذلك الوادي الفسيح قائلة: "نشهد أنك قد بلَّغتَ، وأديتَ، ونصحتَ، ثم قال بأُصْبُعِه السبَّابة يرفعها إلى السماء ويَنْكُبُها إلى الناس: "اللهم اشْهدْ، اللهم اشْهدْ، اللهم اشْهدْ". (رواه مسلم)

يجب على كل الآباء والأمهات الذين يطمحون إلى بسط سيطرتهم على أولادهم أن يُفعّلوا ويُطبّقوا بأنفسهم بدايةً ما يريدون قوله، ويتحرّوا الدقة البالغة في هذا الأمر، وبعد ذلك يطلبون من أولادهم تنفيذَ ما يقولون.

حقًّا، بهذا القلق البالغ تحدّث النبي ﷺ عن تلك المهمة التي تسع دائرة الأمة كلها، وأشهدَ أصحابَه رضوان الله عليهم أجمعين على ذلك.. فيا ترى لو سُئلنا نحن أيضًا عن أولادنا الذين تكفلنا بمسؤوليتهم ورعايتهم، فهل نحن في وضعٍ يسمح بأن نقول لهم: ستُسألون عنا، فبِمَ ستجيبون؟ أو هل نتوقع منهم جوابًا أن قد أدّينا واجبنا تجاههم؟

إن هذا التصرف المحمدي والإشهادَ على أداء الأمانة ليرسّخ ويجسّد على أرض الواقع معنى قوله عليه الصلاة والسلام: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"، فهو ﷺ راعي الأمة، وقد جزم بأنه مسؤولٌ عنها إلى أن أشهدَ ربَّه على جواب الرعيل الأول من أمته في الدنيا قبل الآخرة.

روي عن زين العابدين علي بن الحسين ﷺ في بعض نصائحه أنه قال: "وأما حقُّ ولدِك: فأنْ تعلمَ أنه منك، ومضافٌ إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عما وَلِيتَهُ به من حُسن الأدب، والدلالةِ على ربه ﷻ، والمعونةِ له على طاعته، فاعمل في أمره عملَ من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه".

لأن الأهمّ بالنسبة للإنسان هو الارتقاء بأفراد أسرته إلى أعلى مراتب الكمالات الإنسانية، وإشعارهم بمتعة الوجود الأبدي في الآخرة.

أحيانًا نشتري لأولادنا الهدايا في محاولةٍ لإدخال السرور عليهم، بل إننا نفتقدهم حتى عند زيارة بيت الله الحرام أو مسجد سيدنا رسول الله ﷺ، فالأعمال المباركة والخدماتُ الجليلة لا تمنعنا من تذكّرهم، غير أن أعظم هدية لا بد أن نقدّمها لأبنائنا، هي تلقينهم الآداب الإسلامية والأخلاق المحمدية، فلا شيءَ يُعادل مثل هذه الهدية التي تكون سببًا في سعادتهم الأبدية في الآخرة. يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "أَكرِموا أولادَكم وأحْسنوا أدبَهم" (رواه ابن ماجه).

الأسوة الحسنة

لا شك أن كل أم مؤمنة أو أب مؤمن يبتغي تربية أولاده تربيةً صحيحة؛ ليكونوا جزءًا من المنظومة السليمة في ذلك المجتمع المثالي الذي نحاول أن نرسم حدوده، ونضعه في إطار يتوافق مع ما جاء في القرآن والسنة.. غير أن مشاعر هذين الأبوين إن لم تنعكس على حياتهما العملية، ولم تتعمق بالعبادات كالصلاة والزكاة والصوم والحجّ ..إلخ، والأحرى إن لم تتأكد الأقوال الحسنة التي ترددها ألسنتهما بالأفعال الحسنة، أو إن لم تكن أفعالهما أصدق

من أقوالهما، فلا تأثير حينذاك لكلامهما في أولادهما، بل قد يؤدي هذا الأمر إلى ظهور رد فعل معاكس. ولذا يجب على كل الآباء والأمهات الذين يطمحون إلى بسط سيطرتهم على أولادهم أن يُفعّلوا ويُطبّقوا بأنفسهم بدايةً ما يريدون قوله، ويتحرّوا الدقة البالغة في هذا الأمر، وبعد ذلك يطلبون من أولادهم تنفيذَ ما يقولون.

من الضروري جدًّا أن يصدِّق العملُ القولَ؛ لأنه إن وقع تضادٌّ بين أقوالنا وأفعالنا، اهتزت ثقة الأولاد بنا، فإن لاحظوا كذِبَنا أو مغايرةَ أقوالنا مع أفعالِنا -ولو مرة واحدة- فقدوا ثقتَهم بنا طالما احتفظَت أذهانُهم بهذه الذكرى. وقد تتسبب هذه الذكرى السيئة في شيءٍ من الاستياء منا في المستقبل إبان صدور ما يثير غضبهم منا، فلا تجد أقوالُكم صدًى في أنفسهم ألبتة.

من أجل ذلك لا بد أن نضبط سلوكياتنا حتى يعتبرنا أولادُنا في البيت كالملائكة لا مجرّدَ والدَيْن لهم، يجبُ أن يرَوا فينا الجدية والوقار والدقة، وأن يثقوا بنا ثقةً كاملة، فإن نجح الأبوان في نقل هذه المشاعر والأفكار وتمثيلها تمثيلاً صحيحًا، فقد يُعدّان من أعظم المعلمين.

ولا أقصد بذلك مجرَّدَ التمثيل أمام الأبناء والالتزامَ بذلك في حالة تواجدهم وعدمَ الالتزام في حالة غيابهم، ولكني أقصد أن تُصبحَ السلوكياتُ الصحيحةُ جزءًا لا يتجزأ من طبيعتنا، وأن تتماهى الأخلاق العالية مع شخصيتنا، فنعيشها في كل لحظاتنا عن قناعة.

العدل بين الأبناء

يأتي على رأس الشعور بالمسؤولية مبدأُ عدم تفضيل أحد الأبناء على الآخر. أجل، إن أيّ تقصير في هذا الأمر كفيلٌ بأن يُفقِدَنا السيطرة على أبنائنا، وتوجيهاتُ النبي ﷺ في هذا الموضوع لها مغزًى كبير وعميق: فعن النعمان بن بشير ﷺ قال: أعطاني أبي عطيّةً، فقالت عمرة بنت رواحة رضي الله عنها (وهي أمُّ النعمان وزوجة البشير): لا أرضى حتى تُشهد رسولَ الله ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ، فقال ﷺ: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطيةً، فأمرتني أن أُشهِدك يا رسول الله. قال ﷺ: "أَعْطيتَ سائرَ وَلدِك مثْل هذا؟"، فقال ﷺ: لا، قال ﷺ: "فاتقوا الله واعْدِلوا بين أولادكم" (رواه البخاري).

أيْ راعِ كلّ أبنائك وليس واحدًا منهم فقط، فإن وجّهتَ عنايتك واهتمامك بواحدٍ منهم فقط، وأجزلتَ له في الهبة والعطية، ضعُف شعور البِرّ لدى باقي الأولاد تجاهك وتزعزَعَتْ ثقتُهم بك.

حقًّا، إن تفضيل أحد الأبناء على الآخرين، من شأنه أن يثير مشاعر الآخرين نحوه، بل ويجعلهم أعداءً له. لا نشرح هذه المسائل اعتمادًا على المبادئ لعلم النفس فقط، وإنما نحنُ نركّز هنا على عالمية الحقائق التي يريد القرآن والسنة أن يرسّخاها في أرواحنا، وعلى موافقتها لطبيعة الإنسان ومعقوليتها ومنطقيتها وإنسانيتها.

وبعيدًا عن مناقشة الحكم الشرعي للمسألة، فبعضُ الفقهاء حرَّم وبعضهم أجاز، لأن النبي ﷺ في رواية أخرى قال: "أَشهِدْ عليه غيري"، فلو كان حرامًا لما سمح حتى بإشهادِ غيره عليه.. وبغضِّ النظر عن الحكم، إلا أن أصل هذا الأمر قد يكون مدعاة واستثارة لمشاعر الحقد أو الحسد أو التنافس لدى الأولاد.

وكما هو معلوم، فإن نبي الله يوسف بن يعقوب عليهما

السلام رأى في منامه أن النجوم والشمس والقمر يخرّون له ساجدين، فما كان من أبيه الذي كان من المفترض أن يسعد ويفتخر بهذا الأمر إلا أن ﴿قَالَ: يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(يوسف:٥)، لأن هذا النبي العظيم كان يدرك بنبوته كنهَ الطبيعة البشرية، فأحسّ أن هذا الأمر سيثير غيرةَ إخوته نحوه، فقصُّ مثلِ هذه الرؤيا لا بد وأنه سيفضي إلى غيرة الذين لم يبلغوا بعدُ مرتبةَ تزكية النفس.

ومع الأسف فقد تحقَّق في النهاية ما كان يخشاه عليه السلام؛ حيث ألقوا أخاهم يوسف في غيابة الجُبّ، وقد كشفوا بصنيعهم هذا أثر الغيرة في الإنسان حتى وإن كان في بيت النبوة.

من البدهي أن تفضيل أحد الأبناء على إخوته، سيثير لديهم شعور الغيرة والحسد وكرهًا لا شعوريًّا بسبب اختلاف المعاملة.

ويمكننا أن نستوعب هذه الأفكار بشكل أفضل، من خلال العوامل النفسية الشعورية واللاشعورية التي ينتج عنها حبُّنا وكرهُنا وصداقتُنا وعداوتُنا المجتمعية: ولنفترض أن لنا صديقًا عزيزًا وغاليًا علينا، لكنه ذات مرّة لم يتعامل معنا بما اعتدناه منه من روح الإيثار، وتغلب عليه شُحُّه وبُخلُه، فقام بتصرّف غير متوقع، فلا شك أن هذا التصرّف سيظل محفورًا في ذاكرتنا شئنا أم أبينا، لأن كل حادثة تمضي بعد أن تترك أثرًا في حفيظة الإنسان، فإذا ما أعقَبَتْها حادثة أخرى سرعان ما تنبعث وتحيا من جديد.. وهكذا نحن؛ إن قابلَتْنا حادثة حرَّكَت هذه المشاعر البغيضة التي تنام في سكون ضمن دائرة اللاشعور عندنا؛ ثارت ثائرتُنا على الفور، وإن تراكمت هذه الحوادث السلبية فوق بعضها وانبعث عددٌ منها من جديد، فإننا سرعان ما نقوم بتوبيخ هذا الشخص ونجتهد في الدفاع عن أنفسنا.

هكذا الأطفال! فأيُّ موقف سلبي بيننا وبينهم يستدعي أفكارًا مترسخة في عقولهم أو في منطقة اللاوعي عندهم، ومن ثم يتسبب هذا الموقف في حَنَقِ الطفل علينا وعدم إطاعته لنا بالكلية.

إن ما ذكرناه، يشكّل جانبًا واحدًا فقط للمسألة، فإذا ما فكّرنا في المسألة على أنها شاملة لكل مراحل حياة الطفل، بات الأمر أكثرَ تعقيدًا، وخاصة إذا ما اعتبرناه طفلاً لا يفهم، ولم نقدّر الوضع الذي سيكون عليه في المستقبل، فسيأتي يوم نتضرر فيه نحن وأبناؤنا بسبب خطئنا هذا.

الطفل ذكي مهما كان صغيرًا أو مهما ظننتم أنه لم يفهم.. إنه يفهم ويسجل كل شيء، والذي يشهده الطفل في البيت من أقوال وأفعال متناقضة تظنون أنه لا يدركها، تثبت في ذاكرته وكأنها مقيدة في دفتر، فإذا ما آنَ أوانها برزت كلُّها إلى الوجود على الفور.. إنها تَظهر لدرجة أنها تجرف العائلة والأبوين وتنحدِر بهم إلى الجحيم.

ومن ثم فعلى كل مَن يبغي أن يكون أبًا أو أمًّا، أن يأخذ قسطًا من علوم النفس والتربية، ويتعلم المبادئ الأساسية للقرآن والسنة في هذا الشأن إجمالًا على الأقل، ثم يشرع في حياته الجديدة؛ لأن تربية الأبناء ليست أمرًا بسيطًا، وإنما هي أمانة الأمانات وجيلُ الغد ومستقبلُ الأمة. ■

(*) كاتب وباحث سوري.

زهرة شرفي*

لمسة الأمل
في فكر فتح الله كولن

في ظل هذه الظروف الصعبة التي يعيشها الأستاذ فتح الله كولن، وظروف مرضه، ورغم الهموم التي تحيط به، سمعت الأستاذ فتح الله كولن ينادي من بعيد: "تعالوا حلّقوا بالإيمان، ورفرفوا في الأعالي، ولا تحبسوا أرواحكم في المضايق"، ثم يوجه تلامذته إلى الحياة الأبدية، متحديًا الحواجز والمضايق لتجهيز أرواح محلقة بالإيمان؛ "أما أنتم فوجهتكم إلى الحياة الأبدية".

في ظل هذه الظروف الصعبة والأزمات، رأيته يرسل رسائل الصداقة، ويستنشق الأفراح لينسج خيوط الألفة والصحبة، ويقول: "دعونا نضع يدًا بيد مرة أخرى، ونتكلم بقلوبنا، ونُسمع النجومَ ما يدور في صدورنا".

مررت عليه وهو يعبِّد الطريق، ويجهِّز برامج للعيش مع كل أمم الأرض من دون كلل، ويبني لبنات المحبة، ويسلك طريق العشق لحل الأزمات والسير من الخلق إلى الحق، لأن هؤلاء -في نظره- الذين يسلكون "الدربَ بعشق واشتياق خلف دليلهم، تذوب الجبال لهم قيعانًا مستوية، ويصير الحَزن أمامهم سهلاً، ويجتازون لجج الدماء والصديد بسرعة البرق، وينطفئ فَيح جهنم إذا مرُّوا بها. لا مجال للحديث عن تعثُّرهم في الطرق، أو كفِّهم عن المسير ونكوصِهم عنه أو رجوعهم القهقرى، بل يسيرون من الخلق إلى الحق لا يحيدون، لا تطأ أقدامهم الأشواكَ حين يسلكون طرقها بل يطيرون.. لا يترددون ولا يستسلمون للشكوك ولا يرتبكون"، لأنهم عرفوا الطريق الصحيح، إنها طريق العشق التي رسمها لنا القران.

لقد رأيته ينبجس من جديد كالبرعم متحديًا الأوضاع، ويعقد العزائم ليؤكد أن هذا الأنين لن يستمر أبدًا. لن يستمر هذا الأنين حتى يوم القيامة، "رب مفاجأة يخبّئها القدر".

سألت الأستاذ فتح الله كولن في صمت: ما مصدر الطاقة المتجددة التي تغذي روحك على الأمل المتواصل؟ وما سر هذه القوة التي تشحنكم بالتفاؤل الدائم؟ وذلك النسيم العليل الذي يجعلك تستنشق روح العشق في ظل الأزمات؟ وما تلك الأفكار المتناثرة التي تتساقط عليك مثل أوراق الشجر، فتنفخ فيك روح التجدد واليقين بالله؟ وكلماتك المتدفقة التي تفوح بالأمل وتزرع روح الصمود في شخصيته وتلامذتك، ما مصدر معجمك في كل ذلك؟

أجابني الأستاذ فتح الله كولن من بعيد عبر منبر إصدارة "نسمات" للدراسات الاجتماعية والحضارية: "لقد عثرت على الوصفة السحرية لعلاج هذه الأزمات ولتقوية روح الأمل في النفوس والعقول، بما وجدت في الاسلام مما يتوافق مع طبع الإنسان، نعم إن توافق

عندما تتصادق الإنسانية مع القرآن، ستفهمه وتدرك مراميه وتستسلم له، فتصل إلى شاطئ الأمن والطمأنينة، أي لن تجد القلوب ولا العقول غذاءها ولا سعادتها إلا عند توجيهات القرآن وأوامره.

روح الإسلام مع طبع الإنسان، ودفعه له نحو الرقيّ المادي والمعنوي.. هذا كله جعلَنا حتى في أحلك المراحل ظلمة، نتنسّم عبَقَ معاني "الحقُّ يعلو ولا يُعلَى عليه"، ونفتح أعيننا ونغمضها على حقيقة ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الأعراف:١٢٨)، ومن ثم فإننا لم نقع في اليأس والقنوط البتة". إنه القرآن الذي أسمع نداءه من بعيد: "إليَّ تعالَوا، ينابيع نورٍ أنا، إذا تفجَّرتْ أَطفأتْ، وإذا انبجست سقَتْ والطمأنينةَ نشرتْ، والسكينة أشاعت.. فما بالكم لا تسمعون، وإيّاي لا ترجون؟.

نعم، فالأستاذ فتح الله كولن وجد في القرآن ما يفجر فيه طاقة للأمل، فتجعله يعيش من أجل أن يعيش الآخرون. وما يشق له ينابيع للعمل الدائم؛ ومنابع يستقي منها ليغدو كالشجرة الذي تظل شامخة وسط الأعاصير

والرياح. فهو يرى أن هذا الكتاب الرباني نزل من نقطة ترى الماضي والحاضر والمستقبل، حيث وضع أفضل نظام للكون وهو قادر أن يصنع المستحيل. لهذا، فلا بد من الرجوع إليه للانتفاضة من جديد بمنهج سليم، وبوصفة سحرية وبمعادلات آمنة لحل كل هذه المشاكل ومقاومة الأزمات، للوصول إلى شاطئ الأمن والأمان. وقد أكد في كثير من المناسبات أن الإنسانية ستبقى "تتجرع الآلام وتعيش في الأزمات طالما كانت بعيدة عن أسس التربية القرآنية. ولكن عندما تتصادق الإنسانية مع القرآن ستفهمه وتدرك مراميه وتستسلم له، فتصل إلى شاطئ الأمن والطمأنينة. أي لن تجد القلوب ولا العقول غذاءها ولا سعادتها إلا عند توجيهات القرآن وأوامره.".

إن المتأمل في معالم هذه الوصفة السحرية التي استخلصها الأستاذ فتح الله كولن، سيجد أنه حدد المهمة التي ينبغي أن يقوم بها القرآن، رغم الظروف الصعبة التي تحيط به. ثم استطاع انطلاقًا من هذا الكتاب الرباني، أن يستخرج لنا نوع الحركة التي ينبغي أن يقوم بها في ظل الأزمة المحرجة، إنها حركة دائبة وفق منهج متجدد.

نعم كما أن المتمعن في هذه الوصفة، يلحظ أن الأستاذ فتح الله كولن استنبط لنا أسلوبًا ليّنًا للرد على هؤلاء المخالفين، وكذلك استطاع العثور على مجموعة من المبادئ والأسس التي تحدى بها ظروف الأزمة والمرض والغربة. وسنحاول كشف بعض هذه الأمور في الفقرات الموالية:

كولن يحدد المهمة التي ينبغي الانشغال بها

يؤكد الأستاذ فتح الله كولن في كتابه "أضواء قرآنية" أنه ليس "من حق المؤمن أن يقول لقد أديت ما عليّ ولم يبق أمامي عمل شيء آخر. لا يجوز أن يقول هذا وينسحب من الميدان. عليه أن يرتاح بالعمل وأن تكون راحته مقدمة لعمل آخر، وأن يعيش اليسر في العسر، وأن يقيم اليسر والعسر على ضوء المشاعر الغيبية والروحية" لخدمة الآخرين بمشاريع تمثل روح الإسلام وتقيم صروح الروح، وبفهم صحيح لنصوص القرآن.

فالأستاذ كولن يرى أن المهمة التي ينبغي الاشتغال بها، هي شرح وتوضيح المبادئ والحقائق السامية التي جاء بها القرآن في جميع مجالات الحياة، واستخراجها في شكل أدوية للأمة، وذلك عبر مشاريع عملية تخدم الآخرين، وتقرب منهم هذه المعاني التي جاء بها القرآن الكريم، وفق مبدأ "الآذان شبعتْ والعيون جائعة". لهذا، فهو يؤكد على أن: "القرآن الكريم أفضل نظام اجتماعي لأفضل مجتمع قبل أربعة عشر قرنًا، ولكننا لم نفهم نحن هذا بعدُ، لذا لم نستطع شرح هذه الوجهة الاجتماعية للقرآن كما يجب أمام المبادئ الأخرى.. ووظيفتنا الآن ومهمّتنا، هي القيام بشرح كل هذه المسائل وتقديمها كوصفة علاج لأمراض الإنسانية وأدوائها.

وفي قول آخر له يؤكد أن الإنسانية ستبقى "تتجرع الآلام وتعيش في الأزمات طالما كانت بعيدة عن أسس التربية القرآنية". فلا سبيل للخروج من الأزمة إذن، إلا بالرجوع إليه (القرآن)، لأنه هو الكتاب الوحيد الذي استطاع أن يهذب لنا أحرف الكون، ويحدد لنا العلاقة الصحيحة بين الله والكون والانسان. ولا يمكن فهم حقيقة هذه المنظومة من دون اللجوء إليه، وهو القادر على إيجاد حلول لمشاكل مستعصية، بل هو كما أكد الأستاذ فتح الله كولن، قادر على صنع المستحيل، ومن يستغن عنه يضلّ في الطريق.. "من فهم القرآن حق الفهم تصبح البحار الواسعة كقطرة ماء أمام ما يرد إلى صدره من إلهام".

حركة دائبة تفضي إلى تجدد مستمر

وانطلاقًا من قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾(الشرح:٧)، حدد لنا الأستاذ فتح الله كولن نوع الحركة التي ينبغي على الإنسان أن يقوم بها لتخطي كل الصعوبات.. إنها حركة دائبة، وكما أشار في كتاب "أضواء قرآنية": "يكون في حركة مستمرة ودائبة يترك مشغلة من المشاغل لمشغلة أخرى، أي يستريح وهو يعمل، ويعمل وهو يستريح". وبعبارة أخرى فالأستاذ كولن نظَّم وقته بهذه الحركة، وفق خطة لا مجال فيها للنظر إلى السلبيات. وفي ظل هذه الأزمة والظروف الصعبة التي يعيشها، نجده يدعو من حوله إلى التجدد، وهذا ما يوضحه لنا قوله: "عندما يتم تناول القرآن الكريم من جديد، نرى كيف نفهم أشياء جديدة وجيدة، وكيف أن شبابه يتجدد بتجدد العلوم وتقدمها بمرور الزمن".

hiragate.com

لهذا، فهو يؤمن "بضرورة توجيه العالم الإسلامي جميعًا، إلى التجدد بكل أجزائه في فهم الإيمان وتلقيات الإسلام، وشعور الإحسان والعشق والشوق والمنطق وطريقة التفكير..".

نفحات الأمل في فكر ومنهج الأستاذ فتح الله كولن لا ساحل لها، وما أشرت إليه في هذا المقال إنما هو شيء يسير مما يثير في أسلوب ومنهج هذا العالم الكبير. والغريب في منهج الأستاذ كولن هو أن هذا السلوك مطرد عنده في كل الظروف والأحوال، ومع كل الناس والأجناس. لا يضره من أساء إليه كما لا يحابي من أحسن إليه، وكأنه -وكعادته- يتمثل قول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨).

أسلوب الرد على الظالمين

ومن خلال تأمل الأستاذ فتح الله كولن في آيات القرآن، استنبط لنا أسلوبًا حكيمًا للرد على الظالمين والمخالفين له. وهو ما أشار إليه في إصدارة "نسمات" في إحدى المقالات: "دعوهم يقولون ما يشاؤون، كل يعمل على شاكلته، كل يعبر وفق طبيعته، لا تكترثوا بهم أبدًا، لا تبالوا، أغمضوا أعينكم عنهم"، امتثالاً للآيات:

﴿وعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾(الفرقان:٦٣)، ﴿وإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(الفرقان:٧٢)، ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾(آل عمران:١٣٩).

التوافق هو سر التوفيق:

انطلاقًا من الآية ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾(الفتح:١٠)، أكد لنا "أن أعظم وسيلة لجلب العون الإلهي والتوفيق الرباني، تأسيس التوافق وتحقيق التوحد بين أفراد المجتمع.. والابتعاد عن كل نزاع وشقاق. فإذا أصبحنا كيانًا متوحدًا وكلًا متوافقًا، فسوف تتنزل علينا من الألطاف ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. وسوف نمتلك القدرة على رفع أحمالٍ أثقلَ من جبل قاف". لذا نجده يركز جهوده نحو التوافق والتآلف وكما أكد في مقاله "نكران الذات والمدد الرباني"؛ "يجب أن نركز جهودنا كلها لكي نبقى متماسكين تماسك الفولاذ، ومشدودين إلى بعضنا كالبنيان المرصوص. وها هو القرآن يعلن عن مرسومه الخالد بقوله: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾".

هكذا نجد أن الأستاذ فتح الله كولن حثنا على ضرورة إنشاء جسور الألفة والتواصل لعدم الوقوع في الفرقة والاختلاف التي تحاول مصايد الأعداء بثها في النفوس والعقول. هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد المفكر كولن يحث الأفراد على الابتعاد عن الأنانية والبغض والحقد، ليتم الوصول إلى نعمة وفضل الوفاق الاجتماعي كما ذكر في كتابه "الموازين". وفي هذا السياق يبين لنا أن مشاعر البغض والحقد نقيصة كبيرة: "إن وجود مشاعر الحقد والكره والعداء عند أي شخص، سواء أكان هذا متدينًا أو رجل علم أو رجل إدارة أو رجل فكر أو زعيمًا، يعد نقيصة كبيرة وعيبًا. وهم بهذا يمثلون ناحية سلبية في نظر الحق تعالى وفي نظر الخلق، وفي نظر هذا الجيل الناشئ".

هكذا استطاع الأستاذ فتح الله كولن من خلال نظرته المتجددة لروح القرآن، وفهمه العميق لمعانيه، أن يحيي فلسفة الأمل المتواصل، ويزرع الأمل في النفوس والعقول، ويغذي القلوب على التفاؤل الدائم رغم ما يعترضه من مشاكل وأزمات. ■

(*) كاتبة وباحثة مغربية.

المراجع

(١) مقال لا تحبسوا أرواحكم (٢٠١٨/٠٤/٢٩).

(٣) مقال أوان الرجوع إلى النفس (٢٠١٨/٠٤/٢٩).

(٤) مقال الطرُق (٢٠١٦/١٢).

(٥) مقال أنين الأرض، فتح الله كولن (٢٠١٨/١٠/٣١).

(٦) مقال دنيا في رحم الولادة (٢٠١٦/١٠).

(٧) مقال فجروا ينابيع القرآن (٢٠١٨/١١/٢٤).

(٨) مقال كيف يتجدد شباب القرآن؟ (٢٠١٨/١٠/٣٠).

(٩) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠٨، ص:١٨.

(١٠) أضواء قرانية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٠، ص:٣٥٠.

(١٢) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨، ص:٢٤.

(١٣) مقال نكران الذات والمددُ الرباني (٢٠١٨/١٢/٠٦).

hiragate.com

أ.د. موفق أواز*

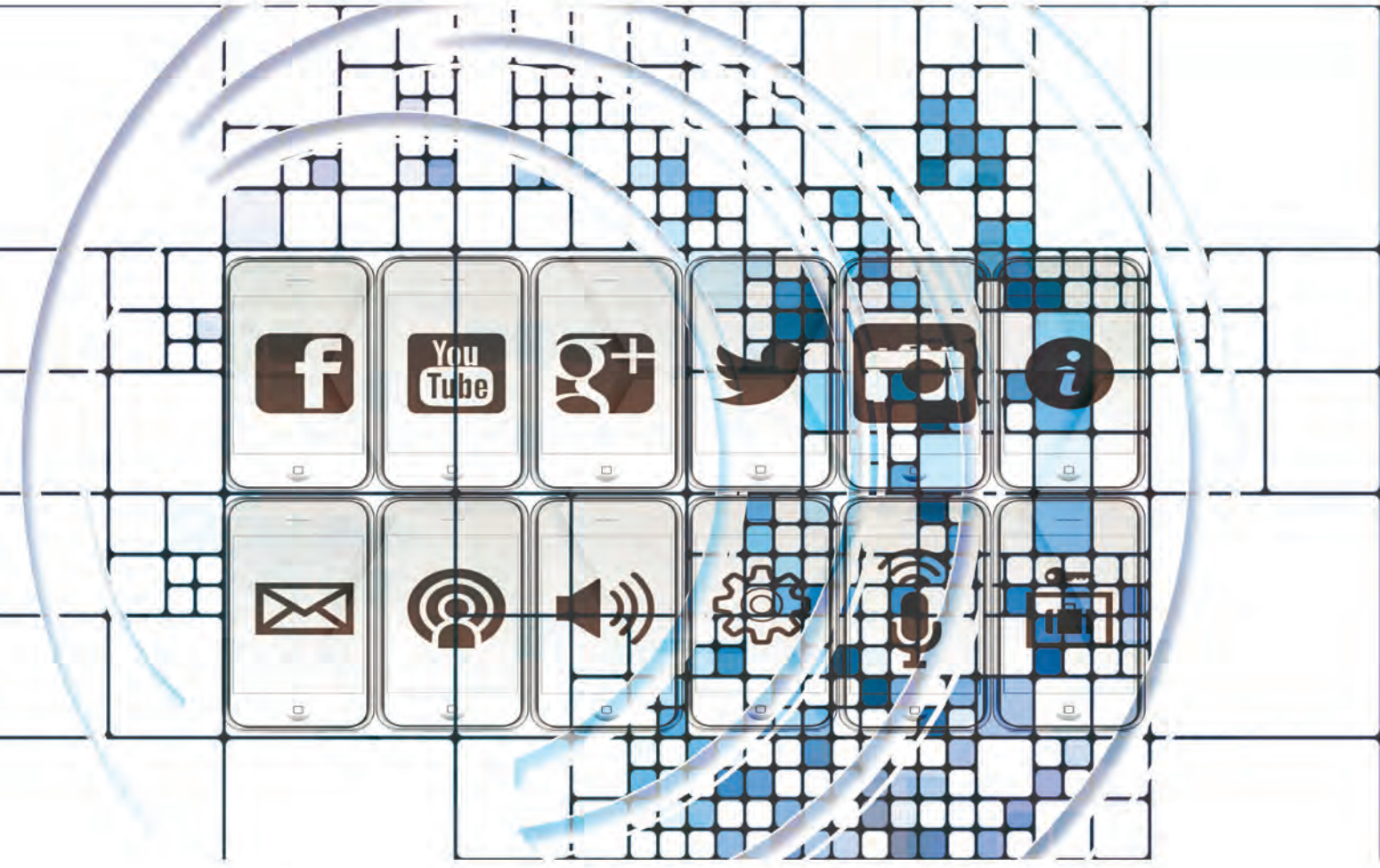

وسائل التواصل الاجتماعي وآداب استخدامها

إن مراعاة الأدب في كل أفعالنا، هو أمارة على حُسن الخلُق بل ذروته. ولا يتأتى لأحد أن يصل إلى مرتبة الإنسانية الحقة إذا نقص أدبه. فالإنسان في الحقيقة ليس ببدنه ولكن بأدبه وسمو روحه. ويقال: "أدب المرء خير من ذهبه".

الأمر نفسه عند التعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي المعروفة اليوم، فمن الواجب التحلي بالأدب في التعامل مع الفيس بوك (Facebook) وتويتر (Twitter) ويوتيوب (YouTube) وإنستجرام (Instagram). هناك شيء نصادفه كثيرًا على هذه المنصات، وهو أن رسالة ما ترِد إلى شخص ما، فيقوم هذا الشخص على الفور بإعادة إرسالها ومشاركتها دون أن يتحرى ما فيها أو يتحقق من

صحتها. ولا سيما أن القرآن الكريم يأمر بالتثبت أولاً من الأشياء التي لا يُعلم مصدرها، ثم التحرك بعد ذلك. وإن مخالفة ذلك يتنافى مع خُلق المسلم القويم. وقد وردت بعض آيات كريمات في هذا الصدد، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(يونس:٣٦)، ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾(الإسراء:٣٦).

وورد في السنة النبوية أن رسول الله ﷺ قال: "كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمِعَ" (رواه مسلم)، لأنه ربما خالط بعض ما يسمعه المرء أو يقرؤه، شيء من الكذب، فإذا نقل الإنسان ما سمعه أو قراه إلى شخص آخر، فإنه بذلك يشارك في إشاعة الكذب.

هذا ونجد العلماء يذكّرون بهذا الحديث السالف الذكر، منبهين على أنه أحيانًا ما يتحدث المرء أو يكتب عبارة صادقة وصحيحة من كل جوانبها، إلا أن تقديم كلمة فيها أو تأخيرها أو حتى إخراجها من النص ربما تسبب كوارث جسيمة، أو تكون سببًا في تأجيج نيران الفتنة. لذا، من المهم جدًّا أن تُطرح المسائل بشكل واضح وصريح، وأن تقوَّم بشكل دقيق، وأن تُفهم بشكل جيد وسليم؛ وهو ما يُعرف في كتب الأخلاق بـ"التبيين". ويجب لفت الأنظار -ولا سيما في زماننا الذي انتشرت فيه الأحكام المسبقة والتحريفات- إلى ضرورة العمل على فهم معنى ومضمون النص، وأن يوضع في الاعتبار -كذلك- ماهية من ينقل هذا الكلام.

وتجدر الإشارة إلى بعض التصرفات غير اللائقة التي نُصادفها على مواقع التواصل الاجتماعي في ضوء هذه المبادئ الإسلامية:

ينشئ الأفراد مجموعات للتواصل على منصة واتساب (WhatsApp)، كل حسب مجال اختصاصه واهتمامه. بيد أنه أحيانًا ما تكون هناك بعض الرسائل المنشورة في هذه المجموعات، غير مناسبة للغرض الذي أنشئت من أجله المنصة. على سبيل المثال، ربما تُرسل رسالة متعلقة بالفن في مجموعة واتساب مختصة بالصحة. يجد معظمنا صناديق البريد الخاصة بمنازلنا ممتلئة دون داع ببطاقات الدعاية والإعلانات، فنقوم على الفور بإلقائها في صناديق القمامة دون الشعور بالحاجة إلى قراءتها، وربما كان من

إن مشاركة الرسائل على منصات وسائل التواصل الاجتماعي دون التثبت من صحتها، والتقليل من قيمة الرسائل الواردة إلينا بمشاركتها على المنصات، وعدم احترام المستلم؛ أمر يخالف قواعد الآداب، وسلوك لا يتناسب مع ديننا الحنيف.

بينها خطاب مهم لم نلاحظه في ظل هذا التكدس الذي لا فائدة منه. فبقدر ما يحزننا هذا الأمر، نحزن أيضًا من الرسائل غير الضرورية التي تكدس تطبيق واتساب لدينا. فضلاً عن أن معظم هذه الرسائل غير الضرورية مرسلة عن طريق خاصية "إعادة الإرسال". والحال أن كل رسالة مرسلة، بمثابة خطاب رقمي. وجدية أي خطاب مرهونة بأسلوب الخطاب وطريقة الإرسال. فإن إرسال رسالة ليس لها عنوان، ولا تخاطب الشخص الذي تكتب إليه عن طريق خاصية إعادة الإرسال بالضغط على زر ما، هو بمثابة عدم احترام أو تقدير المرسل إليه.

نصادف الأمر نفسه في رسائل الفيس بوك وتويتر؛ لقد أصبح من الشائع على هذه المنصات أن يشارك أي شخص متابعيه في اللحظة والتو ما يقرأه أو يسمعه دون أن يتحقق من صحته، ويضع نفسه في موضع المخبر الصحفي إذا جاز التعبير. والحال أن الأخبار التي يأتي بها المخابر لا تُقدم للقراء إلا بعد أن تمر من مصفاة المحررين. أما هذه المنصات الإلكترونية، لا يوجد بها آلية فحص أو تدقيق، وهذا يخالف كلية قاعدة التبيّن والتثبت بدقة متناهية من الأمور، وتحديد صحتها، وهو ما عرَّفه العلماء بـ"التبيين".

وحاصل القول، إن مشاركة الرسائل على منصات وسائل التواصل الاجتماعي دون التثبت من صحتها، والتقليل من قيمة الرسائل الواردة إلينا بمشاركتها على المنصات -سواء مختصة أم لا- وعدم احترام المستلم، أمر يخالف قواعد آداب المعاشرة، وسلوك لا يتناسب مع ديننا الحنيف. ■

(*) كاتب وأكاديمي تركي. الترجمة عن التركية: خالد جمال عبد الناصر زغلول.

hiragate.com

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث
للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
صابر المشرفي

مدير التحرير
إسماعيل قايار

سكرتير التحرير
أحمد السيد

الإخراج الفني
أحمد شحاته

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-89

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ٢٠٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201000780841
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

IRAQ
Kani İrfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave.، Clifton، NJ، 07011، USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

للتواصل مع إدارة المجلة | hiragate@yahoo.com
+20 114 782 4322

- حلقة من حلقات سلسلة "الجرة المشروخة"
- زاد روحي يتبلَّغ به السالكون درب الغايات السامية
- معان عميقة وحقائق قيمة
- كتاب للأستاذ فتح الله كولن

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com |
00201023201002
www.souq.com
مكتبة الشروق | Shorouk Bookstores | مكتبة فكرة ستي ستارز

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com

جناح الأمل

أجنحةٌ هبةُ الرحمنْ ... خُلِقتْ من أجلِ الطيرانْ
لا تَتْرُكْها بلْ حَرِّكْها ... وفِّ لَهَا حَقَّ الإحْسانْ
قُمْ حَلِّقْ فَبِهَا تَتَخَطَّى ... مَا لا يُمْكنُ في الحُسْبانْ
جسْمُكَ ينْطقُ عزْمًا بَأْسًا ... لا يحْتاجُ إلى بُرْهانْ

ISSN 2357-0229
89
9 772357 022004
www.hiragate.com